رواية

أربعة عقود من اليأس

مشاري الإبراهيم

مدارك

أربعة عقود من اليأس

الكتاب: أربعة عقود من اليأس

المؤلف: مشاري الإبراهيم

تويتر: @i_mishary

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: فبراير/شباط 2016

رسومات: أحمد طاهر

تويتر: TaherART @

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-614-429-950-0

Madarek مـــدارك
Madarek Publishing House دار مـــدارك للنشـــر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226 دبي - الإمارات العربية المتحدة

Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai-United Arab Emirates
P.O.Box: 333577 Dubai - UAE Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـــ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من مدارك.

Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing

مشاري الإبراهيم

أربعة عقود من اليأس

نحن البشر نحب أن نعذب أنفسنا كثيرًا؛ أحيانًا بدعوى الحب، وحينًا بدعوى تخليص النّفس، وفي أحايين قليلة لنتجرّع مصيبة الحرمان، وهَوَس كثيرٌ بقصائد الحب والغزل والأغاني، شاهد عيان على ذلك؛ فهي إما أن تذكّرنا بما فات لتؤرقنا، وإما أن تؤمّلنا بما هو آت لتُسهرنا، وإما أن تزيد من ولعنا بشخصٍ ما؛ ما يعني أن مصيبة فقدانه ستكون أكبر.

الفصل الأوّل

ولا بُدّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ...

يُواسيكَ أو يُسْلِيكَ أو يتوجّعُ

بشّار بن برد

الثلاثاء 11 شوال 1420 هـ ــ 18 يناير 2000م

نظرتُ إلى عينيها بعمق، شيءٌ ما قد تغيّر.

من غرفةٍ ما، ارتفعَ صوتُ قناةٍ إخباريّةٍ في جوانب المنزل. عيناها الكحيلتان كادتا تقتلاني، كنتُ أرجوهما، قلبي يستجدي شيئًا مّا... لا يعرف ما هو.

لم أر أية إجابة، سكون غريب اعترى بحر عينيها، تلك الأمواج المتلاطمة التي كنت أراها دومًا؛ قد سكَنَت. هل بدأت في الحداد على فراقي وأنا أمامها؟

وجهها الشّاحب كان الجواب..

لذات العينين ــ وعلى مسمعِ صاحبتها ــ كنتُ أقرأ كلمات نزار قبّاني:

بعينيْكِ.. يبدأ تاريخُ نهرِ الفُراتْ.
ويبدأُ حزني الجميلُ الذي
يتكلَّمُ سَبْعَ لُغاتْ.
ويبدأُ عِشْقي العظيمُ الذي
يتسلَّقُ جُدرانَ جسدكِ مثل النباتْ
بعينيْكِ..تُفتَحُ ليلاً، جسور الفُراتْ.
وتأتي قلوعٌ
وتمضي قلوعٌ.
وبالضوءِ تغتسلُ الكائناتْ.
أُحبُّكِ حتّى التناثُرِ
يا امرأةً
لا تحيطُ بكلِّ تفاصيلها المُفرداتْ...

كانت على وشك البكاء؛ إلا أنّها لم تفعل، قامت وتركتني وحيدًا بعد أن تركتنا أمُّها قبلها بربع ساعة. آخر صوت صدر في الغرفة كان صوت أمها قائلةً:

(وفّقك الله وإيّاها، وليبحث كل منكما عن طريقٍ جديدٍ له).

اللقيط لا يُزَوَّج...وصلت الرّسالة.

عُدْتُ إلى شقتي بعد أن صلّيت العشاء في جامع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،

هل صلّيت في جامع رجل العدْل في وسط مجتمع الظّلم..؟

نمت في الظلام، وما زلت أنتظر شروق الشمس، منذ أن هجمت العتمة بوداعها.

حِدَاد

استيقظت ذا صباح وبقايا حلمٍ جميل لا يزال عالقًا في ذهني، حلمت أنّني سأتقدم لخطبتها في يومٍ ما أثناء دراستي الجامعية، ياآآه، كم كان ذاك الحلم جميلًا.

ما زلت أبتسم ربما كتعبير عن سروري، حتّى انقضى يومي. كنت أكره الانتظار وحيدًا لأي شيء؛ لكنني في ذاك اليوم تمنّيت أن يختفي النّاس كلهم؛ كي أجد نفسي مع طيف ذاك الحلم الجميل، مع تلك الصور التي تتوامض، وهي غير واضحة المعالم، أحاول فرحًا بغيرِ طائلٍ، إعادة تشكيلها مراتٍ ومرات.

ها أنا الآن أستلقي تحت ما تبقى من أشعّة الشّمس التي بدأ البحر الأحمر بابتلاعها. أتركها تجفف قطرات المياه المتناثرة حول جسدي، متمنيًا أن يجفَّ حبّها الذي أغرقني.

أستنشق الحزن من حولي، وأكنّه في صدري، ثم ألفظه بحسرة.

تأمّلتُ أمواج البحر وهي تتلاطم وتضطرب تحت بساط السماء الممتد، ومثلها تضطرب أفكار متداخلة في داخلي.

مع مرور كل يوم، بدأ البناء الذي بنيته في قلبي ووثّقته بعروقي

يتكسّر، أصبحت حسرة حروف (مجنون ليلى) وألم أسطر (أبي العلاء المعرّي) أكثر وضوحًا لي، ما أمُرُّ به الآن بثَّ (الروح) في تلك الأحرف الجامدة التي طالما قرأتها، وفي الوقت نفسه ما أمر به قتل (الروح) التي في داخلي.

الخميس 11 ربيع الثاني 1421 هـ ـ 13 يوليو 2000م

ذَهَبَتْ..

وأكملت حياتها ولم تتوقف.

زواجها غدًا.

ولا يوجد عندك ـ أيها الهائم ـ ما يمكنك فعله. لا يوجد لديك ما يمكن قوله.

نعم، لا يوجد أي شيء، سوى أنك تعلقت بها، وأصبحت متيّمًا بطيفها.

وبات قلبك ينبض باسمها، وصرت جسدًا بلا روح من دونها.

لا يوجد شيء سوى أنها ذهبت... فقط.

الفصل ما قبل الأوّل

علّمتني أمّي أنه ليس من الذوق العام أن أتحدّث عن نفسي أمام الملأ. حسنًا، سأتحدّث عن نفسي بين ثنايا هذا الورق.

أوّل سجل لوجودي في هذه الحياة، يعود إلى عام 1400هـ (1980م)؛ وذلك على عتبات مسجدٍ قديم، في قرية صغيرة، تبعد 80 كم عن مدينة الريّاض. من المضحك كيف أن بيوت الله محطّة من محطّات الجاني التي تساعده على التخلّص من آثار جريمته.

سمع رجلٌ ستّيني صوتًا. بكائي كسر السكينة التي تتلو أذانَ الفجر كلَّ يوم. اسمه محمد العالي؛ إلا أنّي رُبيت على تسميته (أبي).

لم يخبرني بتفاصيل ذلك اليوم، أو حتّى الأيّام القليلة التي تَلَتها؛ كل ما أعرفه أنه أخذني إلى بيته. أرضعتني زوجته فصارت لي أمًا. قالتي لي أني كنت هبة من السماء بعد أن ضاق صدرها من الحليب بعد موت ابنها الذي لم ترزق غيره.

لم أدرك حقيقة انتمائي لهم إلا بعد أن نعتني بعضٌ من أبناء القرية (باللقيط).

قبل أن ننتقل إلى جدّة بسنوات أجلساني أبي وأمي وأخبراني الحقيقة، كنتُ صغيرًا ولم أكن أتخيّل أن تقودني هذه الحقيقة إلى زنزانة محكمة الإقفال، يُطلّ شبّاكُها على منظرٍ في غاية القبح: مجتمعي.

كفرت، بكل القيم التي عرفت.. بمشاهداتي..؛ بتجاربي الصغيرة..؛ بمجتمعي الذي كان يطل من عيني وأطل كثيرًا على حدقاته المستريبة بي..؛ ربما كفرتُ بوجودي نفسه..؛ بالعالم من حولي، وحدث هذا قبل سنين. كفرت، بعد أن كنتُ مؤمنًا. حصل هذا دون علم أحد؛ حتّى أنا لم أعلم إلا متأخِّرًا. وأقف اليوم ربما لا أعرفني أيضًا. تجيش بذهني كلمات حمد الحجّي:

أأبقى على مرّ الجديدين في جوىً

ويسعد أقوامٌ وهم نُظَرائي؟

ألستُ أخاهم قد فُطِرنا سويّةً

فكيف أتاني في الحياة شقائي؟

أرى خَلْقَهم مثلي وخلقيَ مثلَهم
وما قصّرتْ بي همّتي وذكائي
يسيرون في درب الحياة ضواحكاً
على حين دمعي ابتلّ منه ردائي
أكان لسانيَ إن نطقتُ ملعثماً
وكانوا إذا ناجَوْا من الفصحاء؟
ولستُ فقيراً أحسب المالَ مُسعِداً
وليسوا ـ إذا فتّشتَهم ـ بثراء
وهل لهمو جودٌ بما في أكفّهمُ
وإني مدى عمري من البخلاء؟
وهل كلُّهم أصحابُ فضل ومنّةٍ
وكنتُ أنا المفضولُ في الفضلاء؟
وهل كلُّهم أوفَوْا بكل عهودِهم
ومن بينهم قد غاض ماءُ وفائي؟
بَلى أخذوا يستبشرون بعيشهم
سوايَ فقد عاينتُ قربَ بلائي
لقد نظروا في الكون نظرةَ عابرٍ
يمرّ على الأشياء دون عناء
وأصبحتُ في هذي الحياة مُفكّراً
فجانبتُ فيها لذّتي وهنائي

الفصل الثّاني

بالمُنَاسَبَة، اسمي مشعل

الخميس 9 جمادى الآخرة 1421هـ ــ 7 سبتمبر 2000

ــ خالد.. أتريد أن تقنعني: أن هناك إله وأن كل شيء في هذه الدنيا مدروس؟

كان أحمد لا يقبل بالإيمان بما ينتشر عند الناس لمجرد انتشاره. شكوك أحمد تطال كل شيء؛ ومع هذا كان صديق الطفولة. ربّما كان عنوان الشك يجمعنا؛ ولكني كنتُ أسرُّ شكوكي وكان يعلن عنها.

يأتي أحمد من أسرة شديدة. وأقول شديدة؛ لأنها كانت صفة تصطبغ بها جميع تصرفاتهم. كانوا شديدين في التربية والتدين والحديث والمخالفة. لا مجال لأحدٍ في تلك الأسرة أن يخالف عرفهم في الممارسات أو في الأفكار أو حتّى في فريق كرة القدم الذي عليهم تشجيعه.

كان أحمد مختلفًا عن أسرته في اعتقاداتهم، وكان يأبى أن

يتبنّى أو حتّى يتماشى مع أعراف أسرته ما لم يصل هو إلى قناعة شخصية بها؛ فكان لأحمد مع عصا أبيه (ثم مع حزام أخيه الأكبر بعد أن هرم أبوه) ذكريات كثيرة.

كان خالد ثالثنا. يشبه أحمد في ثقته. كان من أسرة تجارية صناعية، ولا أشك أنه ــ مثل الجميع ــ لديه هموم وطموح، إلا أنه كان في حالٍ ميسور بشكلٍ عام. هل يحق للذين عاشوا حياةً هنيّة أن يدّعوا أن الدنيا عادلة؟ لم يعيشوا العذاب مثل المكروبين. لا أدري...

حدث هذا الحوار ونحن نتسامر في مقهى شيشة. كنّا في جلسة خاصّة يحيطنا سورٌ إسمنتي يصل إلى ركبتَيّ إن وقفت. تغشانا السماء مكشوفة وأمامنا التلفاز وعلى يمينه في زاوية الجلسة مدخل. من تحتنا سجّادة مهترئة ومحروقة تقريبًا في كلّ رقعة فيها..؛ نظرًا لوقوع جمرات الشيشة من زبائن هذا المقهى. لم نأبه لهذا وكنّا قد تكيّفنا مع الجلسة العربية على الأرضية الحمراء.

كان النادل قد دخل قبل ربع ساعة ليعيد ترتيب الجمرات فوق شيشة أحمد وخالد. أنا لا أشيّش، لكنّي كنتُ أشرب الشاي الأخضر كما هي عادتي.

قال أحمد برويّة بعد صمت خالد وامتناعي عن الإجابة بالنيابة عنه:

ــ ما رأيك، هل هذه الدنيا كاملة غير ناقصة؟

قالها ردًّا على انبهار خالد وتسبيحه، عندما رأى ظاهرة كَونية عُرضت في قناة «ديسكفري». أجابه خالد بغير مبالاة:

ـ وماذا ترى أنت؟

أجابه أحمد:

ـ فقر، مرض، ضعف، زلازل، تشوّهات...انظر إلى أفريقيا وانتشار المرض فيهم. انظر إلى شرق آسيا والزلازل التي تصيبهم. أو انظر إلى غزّة، آلاف القتلى واليتامى. أُم تقتل فيشقون بطنها ليجدوا طفلها حيًا. كيف سيعيش هذا الطفل؟ آلاف يدعون «يا الله» يوميًا، وأنت تقول: «سبحان الله»؛ ولكن أين الله عن كل هذا؟

قلتُ:

ـ لم أفهم. ما المطلوب؟

ـ عندما أسمع خالد يسبّح: «سبحان الله»، أفكّر: كيف تسبح بحمد من يتسبب بكل ما ذكرت قبل قليل ـ على فَرَضْ وجوده بالتّأكيد-؟

كانت تطالني شكوك من حين إلى آخر؛ ولكني كنتُ أصنّف نفسي كمسلم. كان إيماني أفضل ما يقال عنه أنه إيمانٌ عادي. كنت أصلّي صلواتي في وقتها، نادرًا في المسجد وأغلبها خارجه. أصوم في رمضان، وأشاهد المسلسلات والمسابقات الرمضانية بشراهة. أتصدّق ببعض مالي في رمضان، وأغتاب النّاس في المجالس أحيانًا. أستمع إلى الأغاني كثيرًا ولا أهتم بأشرطة المحاضرات الدينية الوعظية.

قصّة ولادتي ونسبي تشعرانني بالقهر. ألوم المجتمع على

معاملتهم القاسية لي في أحايين. وفي حالات نادرة يعتريني شعور بعدم الرضى من قدري. لكن عبارة «على فرض وجوده» التي قالها أحمد استفزّتني. ليس بشكلٍ سلبي أو إيجابي لكنها استفزّتني.

قال خالد بعد أن نجح أحمد في استفزازه:

ـ أظنّك تخلطُ بين أمرين. نفي وجود الخالق شيء، والقول إنّه يسمح بالظلم شيء آخر ومختلف، ألا تظن ذلك؟

أجابه أحمد:

ـ في عرف أي شخص مؤمن: الخالق لا بد من أن يكون مصدرًا للخير. فإن رأينا شرًا فهذا يتنافى مع الافتراضات التي يضعها المؤمنون عنه.

قال خالد:

ـ أأفهم من حديثك أنك تقول: من أجل أن تقبل بخالق، لا بد من أن تخلو الحياة من الفقر والضعف والقتل؟ ويلزم أن نولد كلنا أغنياء وأقوياء؟ وأن يتدخل الله إذا أراد شخص أن يختار طريق الشر؟

ـ ما أقوله ببساطة هو: من الصعب أن تقنعني أن رحيمًا عادلًا يرضى بوجود هذه البلايا. الدنيا مليئة بكل أنواع الظلم والأسى والأحزان التي من الممكن تخيّلها؛ فلا يمكنك أن تقنعني بوجود ذات إلهية. ليس ذلك فحسب، بل من الأصعب أن تقنعني بوجود ذات إلهية لها صفات الرّحمة والعدل.

طال النّقاش تلك الليلة، لا أملك الرغبة في تدوين ما حدث، لعلي أفعل ذلك في يومٍ آخر.

استلقيت على سريري تلك الليلة وشرعتُ في التّأمّل.

بدأ ضوؤها يضعف، وأصبحت ذكراها أقلّ وضوحًا؛ ربّما لأنّني لم أعد أشغل نفسي بها كثيرًا.

الإنسان مخلوق عجيب، يمتلك القدرة على خلق جميع الظروف العاطفية والنفسية، واستحضار جميع الذكريات اللازمة، ليحس بالفرح أو بالحزن، والغريب أنه لا يدرك أنه يفعل ما يفعل إلا عندما يصل إلى مرحلة لا يستطيع فيها الانفكاك عن تلك المشاعر.

الفصل الثّالث

شروق، أو هكذا بدا الأمر

إذا رأيت رجلًا ليس في قلبه امرأة..؛
فتأكد أن ما تراه ليس رجلًا، إنه جثة تريد قبرًا!

عبد الرحمن منيف

الخامس من شعبان 1421هـ ــ 1 نوفمبر 2000

خرجت لأصلي المغرب، بعد قيلولة العصر. كنت قد بدأتُ للعمل للتوّ بعد أن تخرّجت من الجامعة بفترة قياسية قدرها ثلاثة سنوات. قيلولة العصر صارت مهمّة بالنّسبة لي.

كما هي عادتي ألبس ثوبي، وأنتعل حذائي، وأنا أمشي تجاه الباب.

في الصالة ــ وبينما رأسي في وسط ثوبي أبحث له عن مخرج ــ سألتني أمي: إلى أين أنت ذاهب؟

فأخبرتها أني ذاهبٌ إلى الصلاة.

عادت إلى محادثتها الهاتفيّة، وكأن التي تكلمها تستمع إلى ما نقول، فسألتُ أمي: «مع من تتحدثين؟». قالت إنها تتحدّث مع أم سعد.

كانت أم سعد صديقة العائلة منذ زمنٍ بعيد. امرأة طيبة كريمة محافظة. ناديت مازحًا ــ وأنا في طريقي إلى الباب ــ: «سلمي عليها وقولي لها أن تبحث لي عن عروس».

قبل أن أغلق الباب، سمعت أمي تقول لي ضاحكةً: تقول لك: «أبشِر».

بحكم وضعي الأسري، فالرّفض كان عنوان كل محاولاتي للزوّاج. كنتُ قد سألت ذلك السؤال مازحًا؛ إلا أنَّ جزءًا منّي كان يتمنّى أن يصير جوابه حقيقيًا.

الإثنين 15 رمضان 1421هـ ـــ 11 ديسمبر 2000

وأنا أنظر إليها، غمرت عينيّ السّعادة حتى امتلأتا، ثم انتقلت هذه السعادة إلى شفتيَّ حتى رسمتا ابتسامة، قلّ ما تعلو وجهي.

دَخَلَتْ والحياء يغمرها.

سبق هذا الحدث عدة أمور: خَفَقَ قلبي بقوةٍ شديدة، فكلّما سمعت أصوات همساتٍ خلف الباب، لم أعرف إن كان هذا صوت أهلها يحثونها على الدخول. أم أنها الخادمة تتحرّك خلف الباب.

هل ستدخل الآن؟ وفي هذه اللحظة؟

لأول مرة في حياتي نسيت كيف أقف، لم أعرف أين أضع يديَّ، هل أضعهما على فخذيَّ؟ أو خلف ظهري متدليّتين من غير معنى؟ هل أنظر إلى أسفل؟ أو أنظر إليها مباشرةً؟

بعد أن خطت خطوة واحدة داخل الغرفة، وقفتْ، وبسرعة وضعت يديها خلفَ أسفلِ ظهرِها، مستندةً إلى الجدار، ولم ترفع عينيها.

عِشتُ في ليل مظلم طوال عمري، وكان دخولها عليّ، يمثل أوّلَ إشراقة أراها في حياتي.

بدأتُ باستعادةِ بعضَ قدراتي، فنطقتُ مُلقيًا التحية، ردّتْ هي بتمتمة خافتة، وأظنها قالت: «وعليكم السلام». سألتها عن حالها، أجابت: «بخير». كانت تنظر إلى الأسفل، وتسترق النظرات إليّ، الود والحنان والطيبة، تعبق من وجهها.

كان منظرها بليغًا إلى حد الإعجاز.

ملأ بياض عضديها أكمام قميصها الأبيض الضيق، وتناثر شعرها حول نحرها وكتفيها بعشوائية بدت متقنة، في تلك اللحظة وددت أن أُكفّن حيًّا بشعرها.

بين خصلات شعرها الثائرة على جبينها كان الكحل الذي وضعته قد امتزج بعينيها وبياض محيّاها ليشكّلا مزيجًا لم أرَ مثله قط. تخيّلت المِكحلة في يدها، تعزف بها على أوتار رموشها، أسيلة الخد، باسمة الثّغر.

مع أنها لم تتحدّث كثيرًا؛ إلا أنني شعرت بكل حرفٍ يخرج من ثغرها يحتضنني. كل شيءٍ فيها كان مختلفًا، حتى قطن ثيابها بدا

كالحرير. لم تكن هناك حاجة للكلام، فلو كان هناك معجمٌ للجمال، لصار جسدها هو أفصح المعاجم، فكل طرفٍ من جسدها خلق معنىً جديدًا للحُسْن.

قطعت هذا الحلم ــ الذي لم يدم إلا للحظات ــ أم سعد وهي تنادي ابنتها من خلف الباب. ابتسامة باغتت وجهها قبل أن تخرج، أما أنا؛ فتلك الابتسامة قتلتني.

بقيت وحيدًا في المجلس. لم أحس براحة كما أحسست في تلك اللحظة. الشعور الذي طغى وأحسست فيه بوضوح، هو شعور الطمأنينة تجاهها. بدأتُ باستعادة وظائفي الجسدية شيئًا فشيئًا، حتّى خرجنا من منزلهم.

سألتني أمي عن رأيي، كنت سأجيبها بموافقتي حتى قبل أن تغلق فمها؛ ولكني قلت: «أريد أن أستخير». سَكَتَتْ. مع أنّني لم أكن محتارًا بتاتًا، ومع أنّني ــ أيضًا ــ قد اتخذت قراري منذ أن أسنَدَتْ ظهرها إلى الجدار عند الباب؛ إلا أنني أردتُ أن أعود إلى بيتي لأصلي شكرًا لله، لا لأستخير.

طَلَبْتُ من والدتي أن تخبرهم بموافقتي مباشرةً تلك الليلة. لا أدري كيف يتسلى الناس بتأخير إجابةٍ كهذه؟ هل هي رغبة في أن يجعلوا الطرف الآخر معلّقًا لمدة معينة، ليحمدوا الله إن وافقوا؟ أم ماذا؟ لا أدري.

بعد أن تحدَّثتْ أمي مع أمّها، دقّ جرس الهاتف في غضون دقائق، فكان ردّها الإيجاب أيضًا، رضيت، هي أيضًا لم تنتظر، وزاد ــ هذا الأمر ــ من ولعي بها.

الخميس 18 رمضان 1421هـ ــ 14 ديسمبر 2000م

كنت أحضّر الكلام وأعيده في نفسي مراتٍ ومرات؛ لأن أوّل الانطباعات هي التي تبقى؛ ولأن هذه المكالمة كانت أوّل مكالمة لنا معًا.

كان لا بد لي ــ في أقل تقدير ــ من ألّا أتفوّه بكلمةٍ غبيّة تطبع صورةً خاطئة عني.

خمس محاولات انقضت بين ضغط زر (الاتصال)، ومجاهدة نفسي بغيرِ طائل ثم الإسراع بضغط زر (الإغلاق) وإنهاء المكالمة قبل أن تبدأ. هممت بالمواصلة هذه المرة، مجرّد إدراكي أنها موجودة في الطرف الآخر، ومعرفتي أنها تسمع ما أقول، يربكني جدًا.

سألتها ــ مرتبكًا ــ عن حالها، أما هي فارتباكها دفعها إلى ألّا تبادرني بالسؤال، تحدّثتُ باضطرابٍ إلى أن أخذ حديثي يعود شيئًا فشيئًا إلى وضعه الطّبيعي، وفي وسط تلك الثرثرة والتأتأة قالت لي شيئًا جميلًا.

حدّثتُها عن رؤيتي لما نحن مقبلَون عليه، أردتُ بذلك أن أتطرّق إلى رؤيتي الشخصية في أمور الزّواج، وذكرت عدة أشياء من مبادئي وما هو محبب إلي... وغير ذلك من الأمور. مما ذكرته

أنني أؤمن أن لكل شخص حقًّا في خصوصيته؛ ولهذا أنا أرى أن تأمين مسكن خاص بنا هو أمرٌ ضروري.

قلت هذا؛ لأنّني أعلم مدى أهميّة هذا الأمر لمعظم الفتيات، وإن كان موضوعًا ماديًّا. قالت بكل جدية: (بالنسبة للسكن، يعني... لا أرى أنه مهم، الأهم عندي أن أعرف أنني سأرتاح مع الشخص الذي سأمضي عمري معه، بغض النظر أين يكون مسكننا).

شعور في غاية اللطف أخذ يتوغّل إلى قلبي، كان خليطًا بين الندم لذكر أمرٍ مادي كالسكن في أول مكالمة، وبين إحساسي بسمو الشخص الذي أكلمه وأصالته.

الجمعة 13 جمادى الأول 1422هـ ــ 3 أغسطس 2001م

تمدَّدَت نحوي ببطء حتى اقتربت، ثمّ قبّلتني ببطء بشفتيها المبللتين بشهدها. لم تكن القبلة على شَفَتي، ولم تكن على خدّي، بل في مكانٍ ما بينهما لم اكتشفه إلا في تلك اللحظة. اعتَذَرَت ــ بطريقتها الخاصة ــ عن خطأٍ ما نسيته لحظتها. أعتقد أنني لو أخذت شعوري في تلك اللحظة ووزعته على عمري كله، لعشت في سعادة حتى آخر يوم في حياتي.

أحيانًا، تلك الأحداث الصغيرة كفيلة بترك أثرٍ كبير في قلب المرء. أشياء كثيرة تذكرني بها، حتى الرطوبة تذكرني بها. قابلتها أوّل مرّة وكان الجوُّ رطبًا جدًا. الجميل (أو المشكلة) في الرّطوبة ــ وما تثيره من ذكريات ــ أنها لا تلامس حاسة الشم فقط، بل تتجاوزها لتحس بالرطوبة على جلدك أيضًا، فتشعر بشيءٍ ما يذكرك بحضورها، وكل جميلٍ منذ معرفتها يذكّرني بها.

* * *

اتجهنا أنا وهي وأمها من جدّة إلى المدينة النبوية لزيارة بعض أقربائهم، وكان ذلك بعد (المِلكة).

الطّهر كله فيها، في قدميها، في عينيها، وفي قدميها مرة أخرى. كانت أمّها نائمة عن يميني في السيارة، أمّا هي، فكانت تجلس في المقعد خلفنا. أحسست بأصابع قدميها تلامس ــ بحذر ولطف ــ

عضدي الأيمن المسنود، لم أحس بمثل هذا الشعور من قبل في حياتي كلها، وقف كل شيء فيّ. لم أتجاوز سرعة ثمانين كيلومترًا في الساعة طوال الطريق.

حرَّكتْ أصابعها ببطء لذيذ. تمنيت أن يتحول طريق المدينة إلى طريق (اللانهاية)، إلى طريق سرمدي لا يكون فيه سوى ذلك الشعور المتدفق.

* * *

أحبُّكِ قبل الأنوثةِ،
بعدَ الأنوثةِ،
شرقَ الأنوثةِ،
غربَ الأنوثةِ،
يا امْرأةً لا أراها
ولكنّها في جميع الجهاتْ
فلا تخذليني
إذا ما طلبتُ اللجوء إليكِ.
أنا سَمَكٌ
يتخبَّطُ في كُحْلِكِ العَرَبيِّ
ويبحثُ عن فُرصةٍ للحَيَاةْ!

نزار قباني

يوم داكن اللون

كنتُ مسافرًا، لا أنسى ذلك اليوم.

هاتفتني أمّي ــ ومن دون مقدّمات ــ أخبرتني أن أبا سعد قد وافته المنيّة، وأن عمّها رفض أن يتم هذا الزواج، بل وهدّد بقطع أم سعد من الأسرة، إن تمّ هذا الزواج.

يقول إنّه أخبر (وجهاء) عائلتها عن وضعي الأسري، وأنّهم مُجمعون على هذا الرّأي.

لم أستوعب الصدمة بادئ الأمر، ولم أُرد أن أزيد من حزن أمي، فتكلّمت معها بكلامٍ يُطيِّب خاطرها، ثمّ تصنّعت ابتسامةً ــ مع أن أمي لم تكن أمامي ــ ثم أغلقتُ السمّاعة.

نظرة إلى الصورة الكبيرة

مجتمعي ينفر منّي، فلا أستطيع أن أتزوج منه ولا أن أناسبه؛ لأني (غير مناسب). هذا واقع، وليس فلمًا كرتونيًا لنعيش في أوهام وردية. وصمتي هي أني (مواطن في أرض الغربة وغريبٌ في أرض الوطن).

حاجة المرء إلى الانتماء حاجة لا يقدّرها معظم الناس؛ لأنهم لا يدركون قيمتها حتى يُحرموا منها، فقط البائسون يُحرمون من الانتماء.

حينما أفكر في حالي أتساءل: ما الذي فعلته لأقابَل بكل هذا الرّفض من مجتمعي؟ وأين راحت دعواتي وصلواتي؟ نعم، أخطئ وأذنب؛ ولكني في الوقت نفسه لستُ فاجرًا، إنني محرومٌ من أعظم ما يبحث عنه أيُّ إنسان في هذا الكوْن، وهو أن يعيش مع شخصٍ يشاركه الحياة.

أحيانًا أتساءل: ماذا لو كنتُ قاتلًا؟ أو زانيًا؟ أو كاذبًا؟ أو لصًا؟ أو مجرمًا؟ يا ترى ما الذي يمكن أن يحصل؟ أحيانًا أقْلِبُ هذا السؤال وأقول: ما الذي جنيته من صدقي؟ ومن صلاتي؟ ومن تركي للمنكرات؟

ما يقتلني هو أنني يختلج في صدري ــ أحيانًا ــ شعور أن الله أصابني بكل هذا من غير سبب، خصوصًا وأنني متيقن بأني لست ذاك المفسد الذي يعيث في الأرض فسادًا.

لا أعلم إلى أين تقودني هذه الأفكار، لا أستطيع أن أُبقيَ كلَّ هذا في صدري.

مسلسل عدنان ولينا

لم أشاهد المسلسل الكرتوني عدنان ولينا في طفولتي، وبعد خطبتي لها وقع هذا المسلسل في يدي؛ ولكني قررت ألا أشاهده حتى أتزوّجها؛ لأني قلت لنفسي: (لعلّها لم تشاهده هي أيضًا، فنشاهده معًا).

قضيتُ آخر ستة أشهر من عمري أتجهّز لحياتي الجديدة معها؛ أمّا الآن فعدنان وعبسي في سفينة القبطان نامق في طريقهما إلى القلعة، يريد عدنان أن ينقذ لينا بالرغم من كل الظروف وعالمه المقلوب، أنا واثقٌ أن النهاية ستكون سعيدة؛ لأنه في الأخير ليس إلا فلمًا كرتونيًا لا يحاكي واقعنا.

ستنامين دائمًا.. وسأسهر دومًا

ستنامين في قلبي..

ستنامين وروحي تلفك..

ستنامين وأنا أراقبك.. وأرقبك..

ستنامين وأنا ساهرٌ أنتظرك..

ستنامين ولن ينام في قلبي غيرك..

ستنامين وسأدعو الله أن تستيقظي يومًا لأضمك..

ستنامين والدنيا تمر أمامي..

لن أتحرّك، ولن يضعف إيماني..

وإن أزِفَ الوقت أوطال الأمد..

سأظلّ هنا...

مستندًا إلى جدران قلبي..

وحيدًا..

حتى يأتي الكريم بفرجٍ منه قريب..

أنا قلم، لا أعلم ما يُكتبُ بي

نحن أدوات عظيمة لمخطط عظيم، نجهل ما أدوارنا حتى نقوم بها، وحتى ــ حينها ــ قد لا ندرك سبب هذا الدور. تائهٌ أنا، أبحث عن شيءٍ ما، عن معنىً مفقود، هذا الضياع هو الذي يشعلني حينًا، وهو الذي يطفئني أحيانًا أخرى.

بين الحين والآخر نحتاج إلى أن تحكى لنا قصص الأطفال، تلك الروايات التي تبث الأحلام وتحيي الآمال، تلك الوصايا التي ترسم الدنيا بلونٍ وردي جميل؛ لا لأن هذه الوصايا حقيقية، بل لأن واقعنا كئيبٌ أسود، فنحتاج إلى أن نكذب على أنفسنا، أن نحثوَ في أعيننا حفنة من الأمل؛ لنواصل السير.

أحيانًا يكون إحساسُنا بالمقدرة على فعل المستحيل هو الدافعَ لنا على المواصلة والاستماتة في طلبه وإدراكه.

نحتاج إلى هذه (الكذبات) و(الأساطير) لنبث الروح والأمل في وجداننا. أفرح كثيرًا عندما أقلّب قنوات التلفاز لأجد فيلمًا كرتونيًا قديمًا يذكّرني بالماضي البعيد، وبالطفولة الخالية من الهموم.

ما للغريبِ وللتَصَابي والهَوَى...

فكَفاهُ ذُلّاً أن يُقال: غريبُ

مجهول

الثلاثاء 22 ذو الحجة 1428هـ ــ 1 يناير 2008م

سنوات مرت منذ حادثة أم سعد وأنا (سجين) بسبب كيفية «انضمامي» للمجتمع. هذه الكيفية كانت ولا تزال سببًا في كثير من الهموم التي أعيشها، أوّلها وأهمها هو أن مجتمعي يلفظني ويتنكر لي.

تمر السنوات وكأنها قرون وأنا أقضيها وحيدًا، تقدّمت للزوّاج عشرات المرّات، وفي كل مرّة أُقابَل بالرفض من أبٍ، أو عمٍّ، أو خالٍ؛ لا أدري ما الحكمة وراء هذا كله؟ دائمًا ما تأتي أخباري المشؤومة بعد انغماسي لمدة طويلة في (أوهام الحلم)، وكأن تلك الأخبار تستأنس حينما تطعنني ببطء، تتركني حتى (أدمن) الشيء، ثم تقطعه عني دفعة واحدة، لتتركني ألملم ــ بألمٍ ــ ما تبقّى من جسدي المجروح.

أشعر بغبن شديد. لا أملك تفسيرًا لما يحدث. أصلّي، أحفظ أجزاءً من القرآن، أحب القراءة وفهم الحياة كثيرا، أستثمر جزءًا من وقتي لمساعدة الآخرين، أبذل كل ما عندي لأُحسن في عملي. بارٌّ بوالدَي. أقرأ وردي اليومي، لا أخالف القوانين المرورية. أتصدق، أعتمر، أبتسم في وجه الغريب قبل القريب (وإن لم أكن سعيدًا). لا أظلم (وأُظلم كثيرًا)..ما المطلوب منّي بعد كل هذا؟!

كلما حاولَتِ السعادةُ أن تطل على حياتي، برقعها زماني. بتُّ أعتقد جازمًا أن جهةً ما تتلذذ بإيذائي وتخطط لهذا؛ لا أقول هذا لأني جزوع، أبدًا، بل لمرور ثماني سنين من الوحدة والانفراد والإمداد المستمر بالآمال الزّائفة مرّةً تلوَ الأخرى، ثماني سنوات من الرّفض والحرمان، ثماني سنوات مليئة بأحداثٍ تُشبِهُ أحداث قصّتي مع ابنة أم سعد، كلّما أوقدتُ شمعة أمل ــ مهما كان ضوؤها خافتاً ــ أُطفئت، لأُترَك رجلًا مكفوفًا لا يزال الفينة بعد الفينة يتذكر بكل أسى بعضًا من جميل ما رأى في تلك المدة الوجيزة.

كأن التاريخ وضعني في أسفل قدمه، معلّقًا في كعبِه، يدهسني كلما تحرّك، دون أن يراني أو يحسَّ بألمي أحد.

أصبحت أُجيد استقبال الأخبار الحزينة، فهذا ليس بجديدٍ علي، أحيانًا أخاف؛ لأني أعتقد أنّه ربّما أُحَضَّرُ لفاجعة عظيمة. هذه الأحزان المتكررة والمواقف الكريهة المتتالية ــ وغير المنقطعة ــ لا تكون إلا لنفسٍ بشرية منحوسة تُحضَّر لكارثة.

الشعور بأنّي بشريٌّ أنتمي إلى مجتمع، وأعيش حياةً طبيعية هو شعور لا أعرفه، كلّما حاوَلَتْ هذه المشاعر أن تستقر في نفسي، لا تلبث أن تأتي عاصفةٌ جديدة مصوّبة لتقتلعها.

يقول بعضهم: إن «فرحته اغتيلت بغتة». أما أنا فيؤتى بي وأُكبّل فأُركَع على الأرض، ثم أُترَك في مكاني لأرى كلَّ ما هو جميل يؤخذ مني، فأبقى وحيدًا على أرض روحي، لأرى من وراء نافذتي الصّغيرة كلًّا من المسيء والظالم والمخطئ يتمتع بكل ما

يفرّحني، لأزداد غبنًا وغمًا. لن أسمح لنفسي أن تسعد لذاك الحد بعد اليوم. لن أعرّض نفسي لهذا الألم من جديد.

كان الوقتُ متأخّرًا. تأمّلت الشارع من نافذة غرفتي، تلك الدروب التي تكتسي بالهدوء، تستمع إلى همومك بصمت، وفي ثناياها متّسعٌ لدموعك وشكاواك، هي الأماكن التي تؤويك عندما تغلَق الأبواب في وجهك.

كل إنسان له حدود يستطيع أن يصبر دونها. كل إنسان حينما يصل إلى ذلك الحد الخاص به لا بد من أن يفعل شيئًا؛ فإن أوذي المرء من أحدٍ، أو من شيءٍ ما، فسيصبر حتى لا تسع روحُه الصبر، ثم لا يملك إلا أن يواجه من آذاه بكل صرامة وحزم، إما بالأذية أو بالرّد بطريقة أخرى؛ ولكن ماذا تفعل إن كان من يؤذيك لا تستطيع أن تفعل معه شيئًا؟ ماذا ستفعل عندئذ؟

أحمد في هذه اللحظة قريب جدًا إلى قلبي. أن تؤذَى باستمرار حتى يتعدّى هذا الأذى الجسدَ والروحَ وحدودَ الصبر، ثم تسحب منك القدرة على المواجهة، إنه أمرٌ يدفعك لأن تفعل شيئًا...أي شيء!

أحاول جاهدًا أن أصبر؛ ولكنّي أريد أن أصرخ! ولا أجد إلا مزيدًا من صفحاتي البيضاء ــ عفوًا السوداء ــ فلا أملك سوى أن أستيقظ صباحًا؛ لألبس ثوب الحزن، وأتعطّر بالبؤس، وأنتعل الكرب، فأضع الهموم فوق رأسي، ثم أمشي، أمشي مطأطِئ الرأس،

أمشي أقتات ــ قسرًا ــ ما يرميه إليَّ يومي، أمشي وأنا أقول لنفسي يائسًا: لعلها مدة عابرة، ولن تعود.

❋ ❋ ❋

الحزن حانتي التي أقضي ليلي فيها، مؤملا أن أراكِ فيها، أنتظرك ثمِلًا بذكرياتي الحزينة، أحييك مراتٍ ومرات، هَرَبَت أفراحي ــ كلها ــ من واقعي يوم أن فارقتك، ولم يبقَ منها إلا سكَرات، حيث أنسج (أنا) الأحداث، حيث أُبعِد كل مغمّة. وأسهر الليل ثمِلًا بطيفك.

الاثنين 5 محرّم 1429هـ ــ 14 يناير 2008

أُزيح همومي باستمرار، وأضعها في زوايا روحي، لم تعد هناك مساحات تتربع عليها هذه الهموم، مع مرور الوقت أصبحتُ مزدحمًا بها، أو قل: محاصرًا بها، أقف في ركنٍ سحيقٍ فأختنق، ولا أعرف كيف أتصرّف.

هل تتخيل مدى الحزن الذي يصيب المرء من حرمانه من حلم حياته؟ وهل تستطيع تصوّر مدى الأسى الذي يعيشه في كل يوم حينما يعلم أن فُرصته في تحقيق ذاك الحلم، هو كفرصة شروق الشمس من المغرب؟

أي فرحةٍ ستتفجّر فيه عندما يُوهَم أنه سيحقق ذلك الحلم؟ وأيّ ألمٍ تظنون سيقطّعه ببطء حينما يُسلَب منه ذلك الحلم رغمًا عنه؟ ثم حينئذ، كيف سيواصل هذا الإنسان العيش، وقد تكرر هذا الأمر مرات ومرات...؟ حتى زيدت في كل مرة من هذه المرات (راء) و(ألف) فصارت مرارات.

ماذا إن كان هذا (الحلم) هو جُلّ ما يصبو إليه في حياته: أن يجد من يحب، ويبادله هذا الحب؟

لا مجال للمصادفة هنا. السّبق والإصرار في الأذى الذي لا حاجة له واضحان كل الوضوح.

كطفلٍ، كل ما يريده هو بناء قلعة من طين؛ ولكن قدَري أنني لا أملك أن أبنيه إلا عند شاطئ البحر، حيث الأمواج العاتية، فلا أملك سوى أن أدعو الله ــ هدرًا ــ ألا تهدم الأمواج بنائي، ثم بالفعل لا تُهدَم قلعتي ابتداءً، بل تنتظر الأمواج حتى آخر لحظة؛ ليكبر الحلم في صدري، ويعشش بين جوانحي، وقبل أن أضع العلم على القلعة، تأتي هذه الأمواج لتنسف كلَّ ما فعلت، وتهدم كل ما بنيت، وحينئذٍ تكون الصدمةُ أشدَّ قساوة، والفاجعة أكثرَ مرارة.

أين بابي؟

هل البحث عن الحب ومعانيه السّامية بابٌ متاحٌ للجميع؟ ربما يكون هذا أمرًا قدريًا، او أمرًا يمر ببوابات الحلم، أو الذكرى، المصادفة، أو التخيل، مع ذلك بعضهم يتجنبه، وبعضهم يطرقه، وبعضهم يحوم حوله حتى يلج.

أما أنا، فلا أجد أمامي سوى جدار أسود بلا باب، فيه ثقبٌ صغيرٌ لا فائدة لي فيه سوى النظر والتحسّر، فلا أنا الذي أرى أمامي انفراج يكفي للولوج في جميل ما أراه من أحلام وآمال، ولا أنا الذي استرحت مما تزرعه هذا الثقب في صدري من أوجاع وآلام.

هذه الغرفة المظلمة. أقف فيها وحيدًا. هل يؤلم الوقوف في الظلمة؟ لا أعرف من أين أبدأ. كل شيء أريده يقف خلف هذا الثقب. ولا أستطيع فعل أي شيء.

أجلس متوسلًا عند هذا الثقب كل يوم، ربّما؛ لأنني أعيش وهمًا، نعم، إنه وهمٌ يحوّل الثقوب الصغيرة إلى أبواب كبيرة، وهمٌ لا أعلم إن كنت أستطيع العيش من دونه.

مسرحية

أمشي تحت ضوء القمر، مسلطًا على روحي، أمثل دوري في هذا المسرح الكبير بكل براعة، الحضور: جماهيرٌ من ورق، تتفرج بصمت، دون أي تفاعل مع كل ما يدور حولي، وكل ما يجري معي.

بين أزقّة صفحاتي، وتحت ظلال كلماتي أحس بالأمان، فأبكي حروفًا قد حبستُها تكذيبًا لواقعٍ ماكنت أريد قبوله، ولم أكن لأرتضيه أبدًا، لكن يبقى الحزين حزينًا مهما توهم، ومهما استمرّ في التمثيل.

كل ليلة

صورتكِ معلقة على جدار ذاكرتي.
أصحو عندها كل يومٍ، وأقبّلها قبل أن أخرج إلى عملي.
وأقابلها حينما اكل غدائي، وأضعها عند سريري قبل نومي.
أغفو وأصحو، ولا أرى أحدًا سواكِ.
كالوردة المُهداة.
سأحتفظ بكِ في كتاب ذكرياتي.
ولكنكِ لن تذبلي أبدًا.
فكلّما أفتح صفحاتك ستعبق ذكرياتك مسكًا وحبًا
وحنانًا وطيبًا.

الفصل الرّابع

الخطوة الأولى

الجمعة 4 ذو القعدة 1422هـ ــ 18 يناير 2002م

هل تسمع ندائي؟ هل أنتَ موجود؟ هل من أحد فوق السماوات يسمعني؟

جاء صوتُ أحمد المنزعج ينتزعني من تأمّلي:

ــ يا أخي، لا تكُن كأختي.

لم يكن يتكلم أحمد عنها كثيرًا. أجابه خالد:

ــ كيف؟

ــ تكلمني عن إثبات وجود الإله، وعن الرسل والديانات. ما رأيك أن تغيّر اسمك إلى ابن عربي فيلسوف أُبحُر لتكتمل الأضحوكة؟

حقيقة؛ أضحكني الوصفُ، وعندما ضحكت بادلني أحمد الضحك أيضًا. حينئذ قلتُ:

ــ أحمد، ما هي الفكرة البديلة؟

أجابني أحمد بهدوء:

ــ عدم وجود فكرة بديلة لا يعني الإيمان بأيّ شيءٍ يساعدك على النّوم ليلاً. الحقيقة تفرض نفسها ولا ينبغي لمسوّلات نفسية بحتة أن تملي علينا إيمانيّاتنا.

ولنكن صادقين، هذا المجتمع الذي تعيش فيه بأكمله مؤمن بإله ودين من دون بيّنة أو دليل.

في كلام أحمد الأخير هذا كثير من الصحّة. قلتُ:

ـ أعتقد أنّك لامست جزءًا من الحقيقة في تعليقك؛ ولكن لا يمكنك أن تطلق حكمًا جادًا على قضيّةٍ ما بالحكم على عقلية بعض أنصاره، فهناك الكثير من القضايا الناجحة التي يتولّاها محامون فاشلون.

أجاب أحمد:

ـ نعم. انسَ رجل الشّارع. لنتحدّث عن موقف خالد: أنت مؤمن بوجود كائن كاملٍ خالق مدبّر من دون بيّنة ومن دون دليل.

رد خالد:

ـ الخيارات المنطقية ـ لا العاطفية ـ هي التي تفرض وجود خالق، إن كان لا يوجد خالق، فكيف إذن جاء المخلوق؟

قال أحمد:

ـ أكرّر، إن كنتُ لا أملك المعلومة الصحيحة فهذا لا يعني أني لا أستطيع إنكار المعلومة الخاطئة. ثانيًا: هناك احتمالات كثيرة لمواجهة أسئلة أصل الكون.

فأجابه خالد:

ـ أعتقد أن كل الاحتمالات تؤدّي إلى الله.

التفت إليّ أحمد:

ـ ألا ترى أن المؤمنين بإمكانهم أن يلووا عنق أي شيء ليتماشى مع إيمانيّاتهم؟

أجبته:

ـ لم لا تناقشون الفرضيات الأخرى لنرى؟

قال خالد:

ـ لنناقش إذن هذه الفرضيات، ما رأيك؟

أجابه أحمد بالنبرة نفسها:

ـ تفضّل.

كنتُ أرقبُ حديثهما متأمّلًا أنه قد يزيل بعض همومي.

قال خالد:

ـ أعتقد أن هناك خيارات محدودة لبداية الكون. الفرضية الأولى هي أن الكون جاء من لا شيء؛ ولكن أساسيات التفكير السليم تخبرنا أنّه لكل حادِث مُحدِث، بمعنى أنّني لو وجدت ـ مثلًا ـ كرة تتدحرج (حادث) فمن المؤكّد أن هناك من ركلها أو دحرجها (مُحدِث).

قاطعه أحمد قائلًا:

ـ ليس شرطًا أن أصف الرّاكل بـ (من)، كلمة (ما) أدق. عندما تستخدم كلمة (من دحرج الكرة) فهناك افتراض ضمني أن المحرّك جهة عاقلة؛ ولكن ربّما الكرة تدحرجت بسبب هبوب الرياح. لماذا نفترض وجود جهة عاقلة تعمّدت

الركل؟ قد تكون مجرّد مصادفة، نتيجة حدث كوني لا علّة له.

ـ كلامك سليم. أعتقد أننا في مرحلة التحقق من وجود مسبب. صفات هذا (المسبب) أو (المُحدِث) من المبكّر التفصيل فيه. لنستخدم عبارة (ما الذي أحدثه) بدلًا من (من الذي أحدثه)، ما رأيك؟

ـ نعم.

ـ بما أن الكَون ابتدأ؛ فلا بُد له من مُبدئ، وهذا المُبدئ سأصل وإيّاك إلى أنّه اللّه.

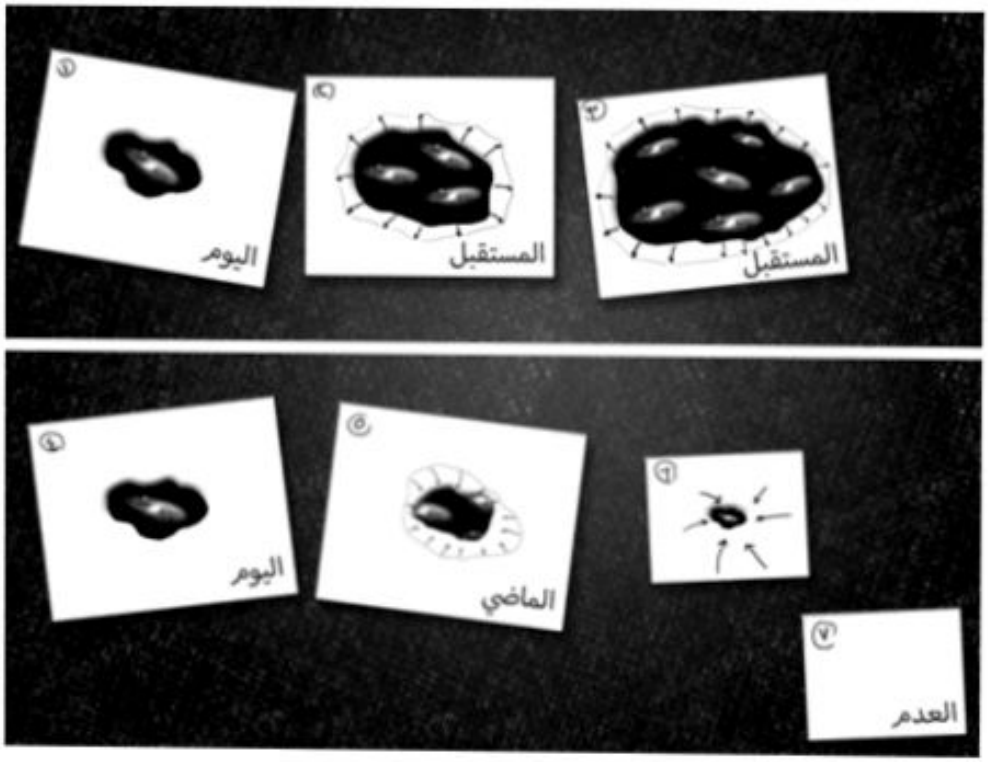

ـ لا يُمكنك أن تتكلّم عن شيء من دون أن يكون لديك دليلٌ علميٌ عليه. هناك نظرية؛ هي المقبولة والمعتمدة في الساحة

العلمية وهي نظرية: (الانفجار الكبير) أو الـ (Big Bang Theory) تُثبتُ أن تمدّدًا هائلًا حصل للمادة الأولية في الكون نتيجة ارتفاع درجة حرارة طاقة كامنة موجودة؛ مما تسبب بما يسمّيه العلماء اصطلاحًا: انفجارًا كبيرًا. وما يزال الكون في تمدد مستمر.

ـ لكن هذه الفرضيات هي تفاسير لكيفية بدء الكون، وليست تفسيرًا لمن أو ما الذي خلق الكون؟ فهذه الطاقة الكامنة، وارتفاع درجة حرارتها ـ التي نتج عنها الانفجار أو التمدد الكبير ـ (ما) الذي أوجدها؟ و(ما) الذي فجّرها؟ ومن الذي وضع القوانين التي بموجبها نشأت المواد الأولية وتفاعلت بسببها حتى تكوّن الكون الذي نعرفه؟ كل ما يفيدنا الـ (Big Bang Theory) هو أن الكون كلّما تقدّم فهو في تمدد، وأنّه لو عدنا إلى الزمن فهو في تقلّص. مما يعني أنه إذا عدنا إلى الماضي السحيق سيتقلص ويتقلص حتى ينعدم. وتولّده من عدم يعني وجود مُبدئ أو خالق أو سبب أوّلي.

ـ كلّها عمليات فيزيائية يا صديقي. التمدد حصل نتيجة لارتفاع حرارة الطاقة، وهذا الانفجار هو نتيجة القوانين الطبيعية، والعلم لم يتوصّل بعدُ إلى كيفية نشوء الطاقة نفسها أو إلى كيفية تكون هذه القوانين.

قلتُ محاولًا دفع عجلة الحوار:

ـ والذي كان سببًا في ارتفاع درجة الحرارة لا بدّ له من سبب،

وذاك السبب لا بدّ له من سبب، وسنبقى في سلسلة من الأسباب. فإمّا أن تكون هناك نقطة بداية، أو سلسلة لا نهائية من الأسباب. فلنترك الحديث عن الوسط ولنتكلم عن وجود بداية من عدمها.

قال أحمد:

ـ نعم، هناك نقطة بداية تتسبب بما يليها فقط، وليس شرطًا أن ننسب لها الفضل في كل الأمور التي تأتي بعد ذلك. إن هذا التمدد أو الانفجار للمادة الأولية وما حدث بعدئذٍ هو نتيجة للقوانين الفيزيائية، لا نتيجة لوجود جهة موجدة.

قال خالد وهو يحاول أن يتحكم بانفعاله:

ـ لو رميتُ إبريق الشاي هذه في وجه رجلٍ يمشي في الشارع، هل سيجيزني إن قُلتُ إنّ القوانين هي التي تسببت في هذا الشيء؟ وأن سرعة الإبريق وارتطامها في وجهه هي سبب كل هذا؟ بالتأكيد لا. هناك من أو ما رمى الإبريق. لا بدّ من الفصل بين الأمرين.

ثم أخبروني من أوجد هذه القوانين؟ ومن أوجد هذه المادّة أساسًا؟ إن آمنت بوجود مادّة أوليّة (حدث) فأنت تلقائيا تعترف بوجود مُوجِد (مُحدِثْ) لهذه المادّة الأوليّة التي تسببت في الانفجار، وإن كنت تقول إن القوانين موجودة منذ بدأ الزمن، فهناك من وضع وهيّأ هذه القوانين. القانون لا يأتي من جهة غير عاقلة. الله موجدها.

بينما خالد يتحدّث، فكّرتُ: يتبيّن لي أن ما يقدّمه خالد هو نتيجة لمقدّمات عقلية؛ ولكن شعوري بالوحدة والظلم تنغّص علي يومًا بعد يوم. ربّما هناك إله، لكنهّ ليس خيّرًا. هذه نتيجة ممكنة. هل تستوي فكرة الإله غير الخيِّر؟ جاء صوتُ أحمد ليعيدني إلى الحوار:

ـ هناك نقطة مهمة يا خالد. أنت تفترض أن الفرضية الوحيدة هي وجود نقطة بداية؛ ولكن هناك خيار آخر: المادّة في حالة لا نهائية من التولّد عبر الزمن، وسلسلة لا نهائية من الأسباب حتّى حدث الانفجار الذي تعرّفنا إليه ثم استمر الزمن والكون حتى وصلنا إلى يومنا الحالي.

قال خالد:

ـ أهذه الفرضية الثانية؟

ـ نعم.

ـ لكن أنت تقول أن هناك شبه إجماع على نظرية الانفجار الكبير، وهذا بالضرورة يعني أن للكون بداية، والبداية من العدم في لحظة معيّنة لا بُد لها من مُبدئ.

ـ ليس شرطًا. هناك الآن دراسات تقول بوجود جسيمات قبل الانفجار.

ـ وجود زمن أبدي وحالة من التوالد الأبدي أمر غير ممكن.

ـ لَمَ لا؟

ـ لنشبه الزمن الأبدي بشيء أقرب إلى واقعنا: لنفترض أن

هناك حبلًا لا نهائيًا، ثم لنفترض أنّني اقتطعتُ جزءًا من هذا الحبل، هل يصير الحبل أقصر؟

ـ نعم، يصير أقصر.

ـ لكن هو لا نهائي؟ كيف يصغر شيء لا نهاية له؟

حاولت أن أتخيّل ما وصفه. أكمل خالد:

ـ ولو زدنا على هذا الحبل جزءًا إضافيًا يجب ضرورةً أن يطول، لكن الشيء اللا نهائي لا وجود له إلا في المخيّلة فقط، أمّا واقعًا فلا يعقل أن يكون هناك شيءٌ لا نهائي. وما ينطبق على الحبل، ينطبق على توالي الأسباب إلى ما لا نهاية وعلى الزّمن في محورنا هذا، وعلى المادّة عمومًا أيضًا.

ثم لنأخذ المسألة بطريقة ثانية: أنت تتفق أن لكل شيء سبب، صحيح؟

ـ بلى.

ـ لو كان الكون عبارة عن أسباب لا نهائية لما وُجِد أصلًا.

هنا تدخّلت لأن حديث خالد لم يكن واضحًا، فقلت:

ـ كيف؟

التفت إليّ خالد وأجاب:

ـ لنشبه وجود الدنيا بطريقة ثانية: تخيّل لو أن هناك جنديًا يريد أن يطلق رصاصة؛ ولكن بشرط أن يأتيه أمرٌ (سببًا) ممّن يعلوه رتبة، جميل؟

كان كوب الشاي في فمي فهززت رأسي إيجابًا وهمهمتُ بصوتٍ يدل على الإيجاب. أكمل خالد:

ـ حسنًا، إن قلنا إنّ هناك أسبابًا لا نهائية، فهذا يعني أن من يعلوه يحتاج إلى أمرٍ (سببٍ) مباشر لإطلاق الرصاصة ممن يعلوه هو أيضًا. وذاك يحتاج إلى سبب ممن يعلوه، ومن يعلوه يحتاج

إلى من يعلوه، إلى ما لانهاية. بهذه الطريقة لن نصل أبدًا إلى الشخص الأوّل الذي أمر بإطلاق الرصاصة؛ لأنه لا وجود للشخص الأوّل. مجرّد سلسلة لا نهائية من رجال العسكر، وبذلك لن تنطلق الرصاصة أبدًا.

أما إن أُطلِقت الرصاصة، فهذا يعني أنه لا بد من أننا توصلنا إلى رجل عسكري لم يحتج إلى أن يأخذ الأمر ممن يعلوه مرتبة، لأنه هو يمثّل أعلى المراتب. هو يمثّل بداية، فوجود الرصاصة وانطلاقها أساسًا يعني وجود الرجل الآمر الأوّل.

وأنا وأنت نرى أننا والكون موجودون. لقد (استُحدِثنا)، فلا بد إذًا من أنّ هناك مُحدِثًا أوّلًا بتشبيه الجندي وأمر إطلاق الرصاصة نفسه.

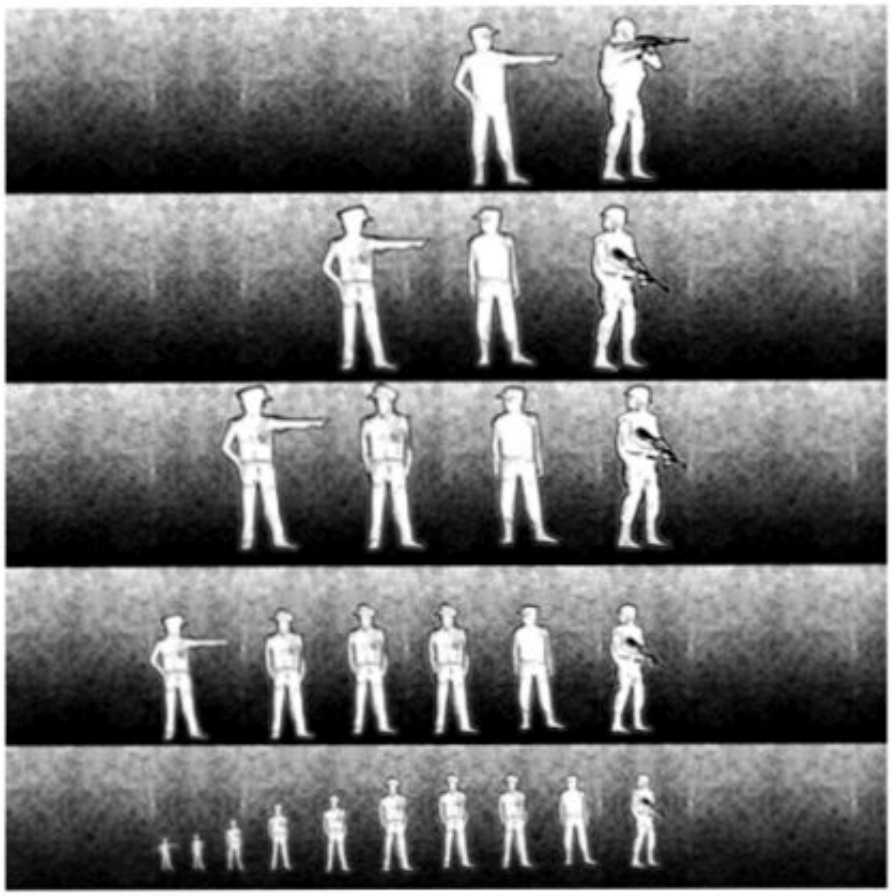

فكّرتُ في حديثه، وقبل أن أجيب، جاء صوتُ أحمد قائلًا:

ـ هذه سفسطة. اللا نهائي مفهوم موجود في الرياضات.

أجابه خالد:

ـ نعم في عالم افتراضي في الرياضيات، لكن لا يوجد ـ في التجربة الإنسانية ـ شيء لا نهائي. فضلاً عن كونه يحدث تناقضًا كما سبق أن شرحته في مثال الحبل اللا نهائي.

ـ لكن مسألة الظلم وتشريعه ما زالت تحتاج إلى إجابة، وهذا ليس قولي وحدي يا خالد، لقد حار فيها فلاسفة كبار ومفكرون عظام.

أجابه خالد:

ـ نحن لم نخض بعد في صفات الموجد بعد. وهل هو ظالم أم لا؟ لكن بالمناسبة، فإن أغلب الفلاسفة بعد طول بحث ودراسات واستنتاجات وتدقيق وتمحيص، صاروا مؤمنين بوجود الخالق، واهتدوا إلى حقائق لا تقبل الشك أو التزييف؛ لكونهم لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه إلا بعد التيقن الكامل، بل أغلب المفكرين انشغلوا بتفسير (كيف) بدأ الكون؟ (كيف) تكونت الدنيا؟

يؤمنُ معظمهم بوجود ذات مختارة قادرة، بقدرتها (أحدثت) المادة/الخلق، سواء كان أفلاطون وسقراط أم مرورًا بآينشتاين ونيوتن. لا تنخدع وتعتقد أن غالبية العلماء والفلاسفة الكبار لا يؤمنون بخالق.

هنا تدخلت قائلًا:

ـ على كلٍّ إيماني وإيمانك لا يجب أن يتوقف على رأي الآخرين. فيلسوفًا كان أم غيره.

قال أحمد:

ـ لا تنسَ يا مشعل أننا نتحدث عن ذات لا إثبات لوجوده سوى فرضيات؛ يعني هو شيء (ممكن)؛ ولكن لا وجود لإثبات.

قال خالد:

ـ أعتقد وبناءً على حديثنا أنه ضروري ولازم الوجود؛ لأننا موجودون، فوجود مسبب أول ضروري.

قلتُ:

ـ أعتقد أنّكم بدأتم تكرّرون حججكم.

قال خالد:

ـ لنأخذ المسألة بطريقة أخرى. هل تعتقدون أن الله ممكن نظريًا أن يكون موجودًا؟

قال أحمد:

ـ نعم. ممكن لكن لا وجود لما يرجّح وجوده.

قال خالد:

ـ لنفترض أن هناك كيسًا فيه ألف كرة، منها 250 كرة صفراء، و250 حمراء، و250 زرقاء، و250 خضراء، وكل هذه الكرات مختلطةٌ بعضُها مع بعض في كيس واحد كبير. لنفترض أنّي طلبت منك أن تسحب كرة بعد الأخرى وعيناك مربوطتان. حسنًا؟

ـ طيب.

ـ لنفترض أني طلبت منك أن تسحب أربع كرات من اللون الأحمر بالتوالي ومن أوّل محاولة بينما عيناك مربوطتان. هل هو أمر ممكن الحدوث؟

ـ نعم، ممكن حدوثه.

ـ لو قلتُ لك: إن أحدًا سحب 250 كرة حمراء على التّوالي، وعيناه معصوبتان ومن أول محاولة بالمصادفة، فهل تتوقع أنك ستصدقني؟ هل هذا شيءٌ واقعي؟

قلتُ:

ــ هو ممكن لمَ لا؛ ولكنه غير وارد الحدوث.

قال خالد:

ــ فما بالك لو كان المثال ببلايين الكرات وبلايين الألوان، هل من الممكن أن تصدق أن شخصًا ــ وبالمصادفة ــ ومن بين كل الكرات الملونة سحبَ بلايين الكرات الحمراء على التّوالي، ثم انتقل إلى الكرات الصّفراء وفعل الشّيء نفسه، ثمّ انتقل إلى اللون التّالي، وهكذا دواليك، وهو مغمض العينين وبالمصادفة؟

لو صدقته سيشكّك النّاس في قدراتك العقلية، فما بالك

بالكون هذا كله؟! هل معقول أن كل ما نراه من تراص وتخطيط وتنظيم، هو عبارة عن مصادفة بحتة؟ هل وجود الخلية بكل دقّتها صدفة؟ وهل ترابطها لتكوين القلب بتعقيده صدفة؟ أنت تقول بتقديم العقل، فكيف ترتضي بأمرٍ مستحيل كهذا؟

هكذا! وبكلّ يسرٍ! تتفاعل مواد بالمصادفة؟ ثمّ ماذا؟ تتكون مخلوقات فجأة، البشر، والحيوانات بأنواعها، والنباتات بأشكالها، والقوانين الفيزيائية التي تحكم العالم والأقمار والنجوم، وطرق التناسل، والأكل والإخراج، والنار والماء والعطش، وعمل القلب والكلية، ومواقعها، والخلايا والحشرات، والغيوم والأمطار، والمدّ والجزر.

معقولة هكذا! كل هذا، بالمصادفة؟!

اسمح لي يا أحمد، لكن تصديق ذاك الذي سحب بلايين الكرات بالمصادفة، أهون بملايين المرات من التصديق بأن الدنيا كلها جاءت نتيجة مصادفة، كانت احتمالية حدوثها تساوي الصفر!

سكتّا قليلًا، وبدأت مشاعري بالتناقض تطفو مجددًا. أنا أشعر بظلم لا أعرف مصدره، وأعرف أن الإله -على فرض وجوده كما يقول أحمد ــ بقدرته يستطيع أن يكفّ هذا الظلم عني؛ ولكن مع دعائي بالزواج ودفع الضر فلا يزال هذا الظلم يقع علي.

هل نعيش ــ كلنا ــ تناقضًا بقدر مثاليّاتنا؟

قال أحمد:

ـ لا يمكن أن يكون صفرًا، لا بُد من أن هناك احتمالية، ومع مرور الزمن ووجود الانتخاب الطبيعي المستمر، تولد هذا التعقيد. نحن نتحدث عن كون عمره 14 بليون سنة تقريبًا.

قال خالد:

ـ بل احتمال حدوثه صفر.

ـ وكيف ذلك؟

ـ لو أتينا بقردة يطبعون عشوائيًا على آلات طابعة فيها 27 حرفًا، وأعطيناهم أبد الدّهر ليطبعوا (مصادفةً) أبياتًا للمتنبّي، مكوّنة من 488 حرفٍ فقط؛ فإن احتمال نجاح هذه التّجربة هو 1 على (10^{690}).

أي: يحتاجون إلى (10^{690}) محاولة، لتنجح هذه المصادفة.

ـ حسنًا، قلتها بنفسك، هناك احتمال؛ لكنه ضئيل، ومع مدة كافية وعددٍ من التجارب الكافية؛ نتج ما نراه اليوم من حياة.

قال خالد:

ـ لكن هل هناك فعلًا عدد فرص كافية؟ حَسَبَ عالم الرياضيات الأمريكي البروفيسور (ويليام ديمبسكي) عدد الفُرَص المتاحة منذ بداية الكون لفعل أي شيء.

حَسَبَ ثلاثة أمور: أولاً الزمن الذي مرّ على الكون منذ نشوئه؛ أي جميع الوحدات الزمنية المتاحة منذ الانفجار

الكبير. ثانيًا: كل مكوّنات أو دقائق الكون التي يُمكن أن تتفاعل. ثالثًا: الحد الأقصى للعمليات التفاعلية الممكنة في كل وحدة زمنية. وتوصل إلى الآتي:

عمر الكون (10^{25}) وحدة زمنية. كُل دقائق مكوّنات الكون هي (10^{80}). الحد الأقصى للتحوّلات والعمليات في الوحدة الزمنية هي (10^{45}).

لو ضربنا كل هذه المعطيات في بعضها، سنصل إلى جميع (الفرص) التي أُتيحت منذ بداية الكون لفعل أي شيء، وحاصل ضرب هذه المعطيات الثلاث، هي (10^{150}) حدثًا يمكن أن يحصل في الكون.

فأي شيء يحتاج إلى عدد محاولات أكبر من (10^{150}) ليحدث مصادفةً يعد شيئًا مستحيلًا، فهي تتعدى ما يسمح به الكون، وتتعدى الحد الأقصى الذي أسماه (ديمبسكي) Universal Probability Bound.

بمعنى آخر: إن هذا الرّقم هو المساوي الفعلي للصفر؛ لأن الكون لا يحتمل هذا الرقم فعليًا؛ فهو مجرد رقم رمزي خيالي على الورق فقط.

- وما المانع أن تكون فرصة حدوث الكون أقل من هذا العدد، على افتراض صحّته ودقّته.

- صحيح، يمكن ألا يكون دقيقًا؛ ولكن - كما قلنا - إن احتمال كتابة «أبياتًا قصيرة للمتنبّي» مكوّن من 488 حرفًا هو 1 على (10^{690}). الذي يتجاوز الحد الأقصى بكثير!

فما بالك بالكون الأعقد من بيت بسيط لأديب عربي؟! ما بالك عمل الخلية والدي إن إيه (DNA)؟ فما بالك بعمل القلب والعين والرئة؟ وما بالك بتعاونهما معًا ليكونا هذا كله؟ وما بالك بكل النظام الذي تراه عينك. ولذلك لا يمكن أن يكون الكون حدثًا عشوائيًا؛ لأن الاحتمالات المتاحة أقل بكثير من الحاجة الكبيرة للفرص والمحاولات التي يجب أن نفترضها إن قلنا بالمصادفة!

أجابه أحمد:

ـ لكن أنت تفترض أن الفُرص المتاحة لم تبدأ إلا بعد الانفجار الكبير الذي حدث في كوننا.

قلتُ متسائلًا:

ـ وما الافتراض الآخر الذي تطرحه يا أحمد؟

ـ ربّما كانت هناك محاولات سابقة في أكوان أخرى، وما كوننا إلا واحد من أكوان فاشلة عديدة. بالتّالي كل كون خُلِقَ مغايرًا لكوننا يضيف (10^{150}) محاولة أخرى.

قال خالد:

ـ تقصد نظرية تعدد الأكوان؟

ـ نعم، عدد الفرص المتاحة التي يتحدّث عنها (ويليام ديمبسكي) ـ إن كان حسابه صحيحًا أساسًا ـ هي متعلقة بالكون الذي نعرفه؛ ولكن هناك فرضية أن هناك أكوانًا كثيرة موازية لكوننا. هذه الأكوان تكونت، ثم اندثرت،

وحصلت محاولات عديدة حتى نجح هذ الكون الذي أعطانا ــ كما تقول ــ هذا الرقم (10^{150})!

ــ لا يوجد أي برهان على وجود أكوان متعددة. أنت استبدلت الإيمان بشيءٍ غيبي ــ تعدد الأكوان ــ للكفر بأمرٍ مبرهن عقليًا ــ وجود الخالق ــ.

ثمّ أنت لم تحلّ المشكلة: من يخلق هذه الأكوان المتعدّدة؟ أنت عدت إلى النقّطة التي حاولت نفيها في البداية، وبما أن هناك (محاولات) لإنجاح الكون؛ فهذا يعني أن هناك جهة (تحاول) إنجاح تجربة، وهذا دليلُ وجودِ جهة عاقلة موجدة، فأنت دائمًا في كلّ فرضٍ تفترضه، تنتهي وتتوصل إلى الإيمان بخالق.

تعقيد مخصص

رشفتُ من كوبِ الشّاي على حين ركن كل منهما إلى الصمت للحظات. أكمل خالد قائلًا:

ـ لنأخذ المسألة بطريقة أخرى ومن منظور بيولوجي: أنت نظرت إلى الدنيا (الحدث» وقلت: إنّها مصادفة، وأنا نظرت إليها وقلتُ إنّها نتيجة تصميم الخالق، فلنطرح المسألة بشكل موضوعي. ما الفرق بين المصادفة والتصميم؟ هناك صفتان في الحدث، إن وجدا، فالنتيجة هي الجزم بوجود تصميم، وإن لم يوجدا معًا فلا يمكن الجزم بذلك حينئذٍ. الأمر الأوّل: هو أن يكون الحَدَثُ «معقّدًا» أو (Complex). الأمر الثّاني: هو أن يكون الحَدَث «ذو غاية» أو (Specialized). إن وجدا معًا؛ فنستنتج بل نجزم أن هذا الحَدث نتيجة تصميمٌ ذكي، ووراءه ذات مدبّرة.

قلتُ:

ـ ماذا تعنيه بالـ «معقد» و«ذو الغاية»؟

أجابني خالد:

ـ هل تعرف لعبة اسمها «سكرابل» Scrabble؟

سكتُ إذ لم أعرف اللعبة. فقال لي أحمد:

هي لعبة مكونة من مكعبات كثيرة. كل مكعب محفور عليه حرف من الحروف الأبجدية، ويفترض منكَ ــ بعد أن تأخذ مجموعة عشوائية من المكعبات ــ أن ترتّب هذه الحروف على لوحة لتكوّن كلمات لها معنى.

أكمل خالد حديثه:

ــ حسنًا، سأشرح لك المعنى باستخدام لعبة السكرابل حتّى تتبيّن الصورة. الحدث إما يكون «بسيطًا» وإما يكون «معقدًا» من جهة. ومن جهة أخرى إما يكون «لا غاية له» أو يكون «له غاية».

بالنّسبة للأحداث «البسيطة». تخيّل أنّك دخلت غرفة، كان فيها لعبة «سكرابل» ووجدت قطعًا متناثرة عشوائيًا، ومن ضمنها وجدت مكعّب حرف «م» وبقربه حرف «ح» وحدهُ

موضوعًا على الأرض: هل يحق لأي شخص أن يجزم أن وجود هذا الحرف بسبب تصميم سابق وليس مصادفة محضة؟

قلت:

ـ لا بالتّأكيد. لأن المكعب مرمي هكذا من دون تخطيط، وحرفٌ واحد أو اثنين قليل جدًا لنحكم أصلًا على المسألة.

ـ بالضبط، فلا بد من أن يكون الحدث معقدًا ويحوي عناصر كثيرة، وهنا نأتي لنضرب مثلًا للنوع الثّاني:

الأحداث المعقّدة: تخيّل أنّك دخلت الغرفة نفسها، ووجدت على الأرض الحروف الآتية جنبًا إلى جنب: «ش» و«س» و«ي» و«ب». عندئذٍ، هل نستطيع أن نجزم أن جهة عاقلة رتبت هذه الحروف بتدبير وقصد؟

قال أحمد:

ـ بالتّأكيد لا. فحتى لو كانت الحروف كثيرة وكان الأمر «معقّدًا» فهذا لا يدل على شيء.

أكمل خالد وقال:

ـ لكن ماذا إن كان للحروف معنىً؟ هذا يُدخلنا في التصنيف الثاني وهو اختلاف الأحداث من حيث أنها ذات غاية. الأحداث نوعان: «ذات الغاية» وأحداث «ليس لها غاية».

فإن كان الحدث بسيطًا ولا غاية له فهذا يعني: أنه لا يمكننا الجزم بتصميمه، مثل أن يقع الحرفان «م» و«ح» جنبًا إلى جنب. في هذه الحالة، لا دلالة على التصميم والقصد.

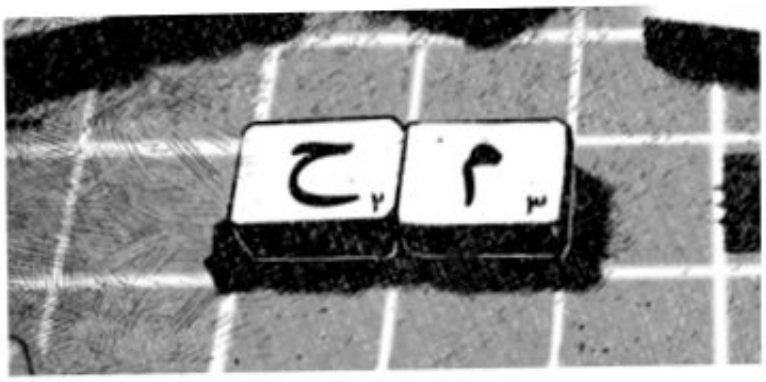

بسيط لا غاية له

وإن كان الحدث بسيطًا وذو غاية فهنا لا يمكن الجزم بتصميمه أيضًا؛ لأن احتمالية حدوثه مصادفةً واردةٌ جدًّا، مثل أن يقع الحرفان «م» و«ن» ليشكّلا كلمة «من» فاحتمالية حدوث هذا الأمر احتمالية كبيرة؛ وبذلك لا يمكن القطع بأي نتيجة.

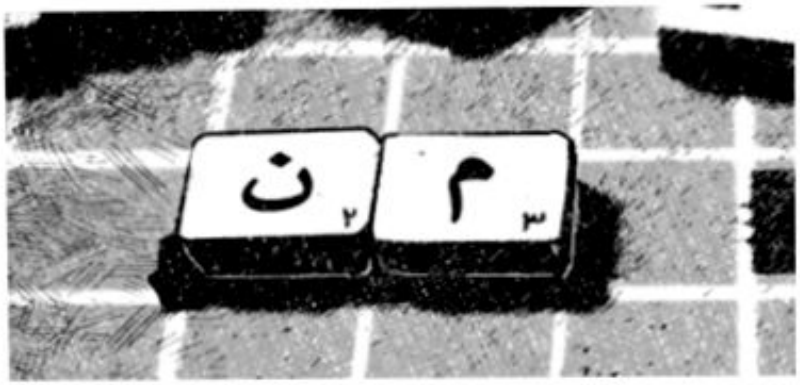

بسيط له غاية

وإن كان الحدث معقّدًا ولا غاية له فلا يمكننا الجزم بتصميمه أيضًا؛ لأنه لا يحوي تصميمًا، كأن نجد الحروف الآتية مرصوصة جنبًا إلى جنب: «م» «ت» «ك» «ح» «ف» «ق».

معقد لا غاية له

ولكن إن كان الحدث معقّدًا وله غاية فلا بد من أن يكون هناك مصمّمٌ وراءه، فإن وجدت حروفًا كوّنت التالي:

«أرق على أرق ومثلي يأرق وجوىً يزيد وعبرة تترقق
جهدُ الصبابة أن تكون كما أرى عينٌ مسهّدة وقلب يخفق»

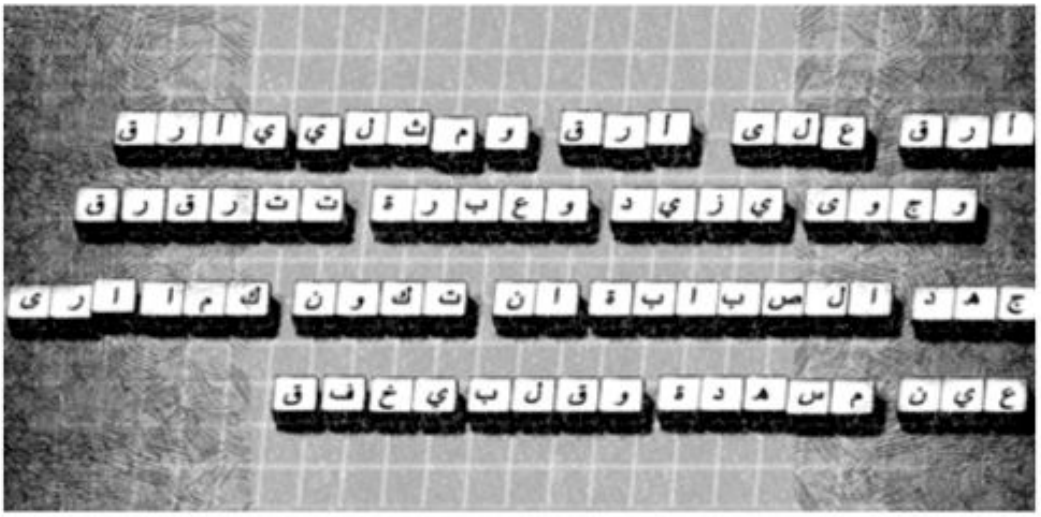

معقد له غاية

فإن جاء أحد وقال: إن هذه مصادفة، وإن تلك الحروف

كانت مرمية وكوّنت هذه الأبيات مصادفةً فسنشك في قدراته العقلية؛ لأن الحدث بلغ من التعقيد والتخصيص قدرًا لا يمكن بعده إلا الاهتداء إلى نتيجة واحدة: وجود جهة واعية مصمّمة لهذه الأبيات.

قلتُ لخالد:

ــ ما المعيار الذي تستخدمه لمعرفة إن كان للشيء غاية أم لا؟

ــ يكفي أن تتأمّل كيف تعمل الخليّة، أو القلب، أو عقلك، لتعلم أن تركيبها يعمل لغاية واضحة؛ فالعين ينظر بها الإنسان. والدماغ يُؤدّي مهمة واضحة... وهكذا. يكفينا النظر إلى نظم بسيطة لهذا الغرض.

إذن من خلق الخالق؟

عاد أحمد فقال:

ـ إن كان لا بد من خالق فمن خلق الله؟

ـ لقد أثبتنا وإياك استحالة التسلسل اللانهائي وأنه الوحيد الذي لا يكون قبله أحد أو يعتمد على أحد في وجوده وإلا لما انتهت السلسلة إليه ولما وقع أي شيء ـ لذا السؤال عن مَن الذي خلقه أو أوجده هو مجرد رجوع للخلف لنقطة فرغنا منها ـ.

ثم إن كل ما كان له بداية، يحتاج إلى مُبدئ أومُحدِثٍ، وكل ما نعرفه في كوننا له بداية. أما الله فهو ليس كائنًا ماديًا فلا يمكن أن تدّعي أن هذا القانون ينطبق في هذا الموضع.

ثالثًا، إذا شربتَ شايًا حُلوًا وسألت: ما الذي حلّاه «جعله حلوًا»؟ سيقال: السّكّر. فسبب الحلاوة ـ الموجودة عرضًا في الشّاي ـ تعود إلى الحلاوة الموجودة ذاتًا في السكّر؛ ولكن لا يمكن أن يقال: ما الذي جعل السّكر حلوًا؟! لأنّه ـ أصلًا ـ حلوٌ بذاته.

إليك مثالًا آخر: لو تركتَ قلمك على الطّاولة ثمّ عُدتَ بعد مدّة ووجدت القلم في الدُّرج، ستسأل: «من حرّك القلم؟». لكن، إن تركت أخاك في الغرفة، ثم عُدتَ إليه ولم تجده، فلا يصحّ لك أن تسأل: من حرّك أخي من مكانه؟ فقدرته على الحركة جزءًا ذاتيًا من أخيك.

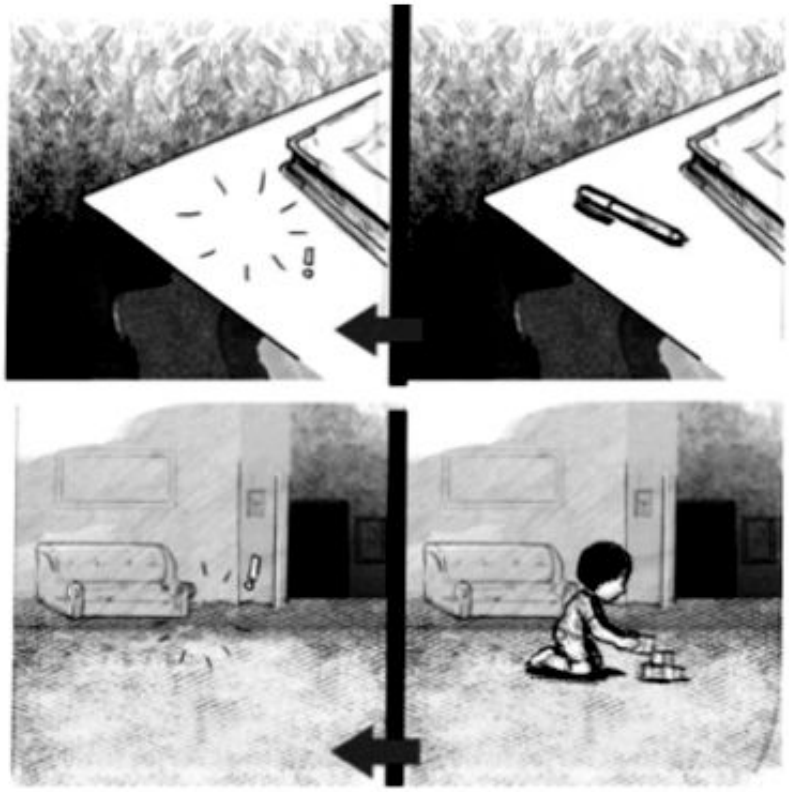

الشيء نفسه يُقاس بالخالق والمخلوق.

ـ هذه فلسفة المؤمنين التي ذكرتها قبل قليل. تجزم بصفات معينة وأنت لم تشاهدها. قل لي، ما هو شعورك لو مت واكتشفت أن الآخرة كذب؟

أجابه أحمد بسرعة:

ـ ليس أسوأ من شعورك عندما تموت وتكتشف أنها حقيقة!

استمر الحوار وأخذتُ أغوص في أفكاري. أفكر اليوم بهذا الحوار. أهذا كافٍ لي؟ لحيرتي؟ لضياعي؟ أهذا «يحل» المشكلة؟ لا أظن... والمسألة ليست بهذه البساطة.

الفصل الخامس

انكسار

«وماذا في السعادة أهنأ من أن توقى شرّ
هذه السعادة، فلا تتطلع نفسك إليها»

مصطفى صادق الرافعي

ضمور

اتّصلت بي والدتي وقالت:

ــ لدي خبر سار!

ــ وما هو؟

ــ وجدنا لك مرشّحة ممتازة

تعلّمتُ من دروسي. لن أتعجّل. لن أفرح. لن أستثمر مشاعري حتّى تصبح حقيقة. سألتها:

ــ جميل. وما هي الخطوات القادمة؟

ــ سألوا عن مكان عملك وعن بعض التفاصيل وقالت أمّها أنها ستعاود الاتصال بي بعد أسبوع.

ــ وهل أخبرتها عن أمري؟

ـ نعم، والأم أخبرتني أنّهم لا يمانعون.

بدأت أمّي تتكلّم عن «المرشحة» وعن جمالها وطيبتها وغيرها من الصفات الجميلة. وجدت نفسي أهتم فيها أكثر فأكثر مع مرور كل ساعة. دخلت على مواقع التواصل الاجتماعي بحثًا عن معرّفاتها.

لم يتطلب الأمر جهدًا كبيرًا حتى وجدتها. مرّت نصف ساعة وأنا أتنقّل بين كلماتها وتعليقاتها. يبدو أنها رائعة! رغمًا عنّي، وجدتُ نفسي مهووسًا بها. أفكّر بها ليل نهار. إضافةً إلى ذلك، صرتُ أكثر مرحًا.

هل هذا يحدث فعلاً؟ هل سأتزوّج؟ كوني يتيمًا يجعل الحياة أكثر جفاءً. أشعر بوحدة موحشة في داخلي حتى وإن كان لدي أم وأب قد تكفّلا بي. لا أزال أرى الرفض في أعين الناس والمجتمع. ما ذنبي إن كنتُ نتيجة شهوة محرّمة؟ أراهم ينظرون إلي وكأنهم يقولون: «ما بُني على باطل فهو باطل»

حتى إخوة أمي وأبي ـ أعمامي وأخوالي وعمّاتي وخالاتي ـ لا يتحدّثون معي إلا الشيء اليسير. أبناؤهم يتفاوتون، بعضهم يسيؤون إلي مباشرة، وبعضهم لا يعاملني بلطف، والبعض الآخر لا يحتك بي أساسًا.

فئة أخرى من الناس تقوم بالعكس تمامًا. تبالغ في معاملتي بلطف، كأنّي حالة إنسانية تستوجب الصدقة. إلا أنّ هذه المشاعر ـ حتى وإن خرجت بحسن نية ـ هي مجرد مشاعر مؤقتة غير حقيقية. ينسوني وينسونها بمجرّد أن نتفرّق.

من المحزن أن تعيش في مجتمع يذكّرك دومًا بأنّك غريب. عندما كنت صغيرًا، تعرّفت على مجموعة صبية. في البداية لم يعلموا شيئًا عنّي سوى اسمي وأنني أعيش في الحي. توطّدت علاقتي بهم لفترة.

اللعب معهم كان ينسيني وحدتي. «هؤلاء هم أسرتي» هكذا قلتُ لنفسي.

في يومٍ ما من أيّام الصيف الحار، كنّا نلعب كرة قدم بعلبة مشروبات غازية. جاء أحد «أصدقائي الجدد» ليلعب معنا وقد كان متأخّرًا بعض الشيء. كان ينظر إلي بغرابة ولم أحاول تفسير نظراته. توجّهنا بعد اللعب لشراء الماء. جاءني «صديقي» وقال أمام البقية: «أمّي تقول أنّك لقيط». لن أنسى نبرة صوته. كأنّه مفتّش يلقي القبض على مجرم. ولن أنسى نبرة صوته لأن ذلك اليوم هو اليوم الذي تيتمتُ فيه من جديد. أخذ يقنع بقية «أبناء العوائل» أنه لا ينبغي أن يختلطوا بابن زنا.

لا أدري لماذا أتذكّر كل هذا؟ لماذا لا أستطيع أن أنسى؟ لا يهم. سأتزوّج قريبًا. ستكون لي زوجة تحبّني وأحبّها. طفلة أضعها على كتفي. يقبلونني كما أنا. صرت أحادث أمّي بين الحين والآخر لأسألها عنها وعن صفاتها وماذا تدرس وماذا تحب؟

مرّ أسبوع. اتّصلت أمّي بهم لتأخذ موعدًا لنزورهم. قالوا لأمي ــ بعد تفكيرٍ ونظر ــ أن ابنتهم لا تريد الزواج بي. برغم أنّهم

يحترمونني إلا أن ظروفي قد تضعها وأطفالها (أطفالي أيضًا!) في صدام مع المجتمع.

قلتُ لك يا مشعل؛ حذّرتك مرارًا وتكرّارًا! لا تعلّق آمالك بأحد، خصوصًا أفراد هذا المجتمع. لا تتفاءل. لا تحسن الظن بما هو مكتوب لك. نعم. أنا ابن شهوة محرّمة. أنا ابن الشقق المفروشة. هذه الصفات ليست من كسبي. لكنها صفات قُدّرتْ لي ولا أستطيع الانفكاك عنها.

الأربعاء 14 جمادى الثاني 1429هـ ـــ 19 يونيو 2008م

الحل

تبادر إلى ذهني أكثر من مرّة الذّهاب إلى دار أيتام. يسكن فيها «أقراني».

لقد حظيتُ بظروفٍ أفضل إذ أن أمًا وأبًا قاما بتربيتي. تلك «الميزة» ربّما أوهمتني أنّه بإمكاني أن أتزوّج بطريقة طبيعية كما يتزوّج الجميع.

تأتي الأم وتبحث عند أسرٍ لها طريقة حياة مشابهة لأسرتي. وتنتقي فتاة متربية في كنف أسرةٍ مثلي. وتتبّع أطباعها التي تتناسب مع أطباعي وأوصافها التي أميل إليها.

الذّهاب إلى دار أيتام بدا غريبًا جدًا بالنّسبة لي. مع من سأتحدّث؟ تربيتُ في بيئة تربوية مختلفة تمامًا عن الفتاة التي تسكن الدار، كيف أعلم مدى التوافق المحتمل؟ وعلى من سأعتمد في معرفة أطباعها وأوصافها؟ كيف سأعلم إن كنتُ مناسبًا للفتاة وإن كانت هي مناسبةً لي؟

برغم أنني أسأل هذه الأسئلة بكامل التجرد إلا أنّي أشعر بتناقض. ألستُ لقيطًا؟ هل يحقّ لي أن أسأل أسئلة كهذه؟ هل أفترض أنّي أفضل؟ بالطبع لستُ أفضل منهم. لعلّ نشأتي أوهمتني بأنّي واحدٌ من المجتمع.

ومع هذه الأفكار والتّساؤلات دخلتُ إلى دار الأيتام. وما إن دخلت حتّى أخذت أسئلة جديدة تتبادر إلى ذهني. أتحدّث مع من؟ أأذهب إلى مكتب الاستقبال وأقول إلى شخصٍ غريب «أهلاً. أنا لقيط. هل من الممكن أن تزوّجوني؟»

دفعتُ تلك الأسئلة جانبًا ومضيتُ قدمًا. لم أجد أحدًا عند الاستقبال. انتظرتُ قليلاً حتى رأيتُ رجلاً يمرّ من داخل أروقة الدار فبادرته:

ـ السلام عليكم.

أجابني بعجلة:

ـ وعليكم السلام.

ـ عفوًا... لكن... هل هناك أحد في الاستقبال؟

ـ لا أعلم. انتظر.

وأكمل مشيه ثم دخل غرفة قريبة.

انتظرتُ قليلاً ولم يأتِ موظّف الاستقبال. وجدتُ نفسي مرغمًا على الذّهاب إلى نفس المكتب الذي دخل فيه الرّجل. طرقتُ الباب وقلت:

ـ عفوًا أستاذي لكن هل بالإمكان أن تدلّني على مكتب...

توقّفت قليلاً. ما اسم المكتب؟ مكتب التزويج؟ مكتب العلاقات الاجتماعية؟ مكتب شؤون اليتامى؟ نعم يبدو أن هذا أنسب. أكملت:

ـ ... شؤون اليتامى؟

لم يفهم ما أعنيه فقال:

ـ ماذا تريد؟

شعرتُ وكأنّني متسوّل، وضعتُ عزّتي جانبًا وقلت:

ـ أريد أن أتحدّث مع أحد بخصوص الزوّاج من يتيم.

قال من غير أن يبدي أي ردّة فعل:

ـ اذهب إلى مكتب أبو فهد عند آخر هذا الممر.

توجّهتُ إلى المكتب وكنتُ أشعر بشيء من الاختناق والضّيق. وصلتُ إلى المكتب وإذا برجلٍ أربعيني يجلس أمامي. قلت:

ـ السلام عليكم، هذا مكتب أبو فهد؟

ـ نعم.

ـ عفوًا. جئت لأستفسر عن كيفية التقدّم للزواج.

ـ من إحدى فتيات الدار؟

ـ نعم.

كنتُ لا أزال واقفًا وما دعاني الرجل إلى الجلوس فأكملت:

ـ هل بالإمكان أن أجلس؟

أجاب ببرود:

ـ نعم بإمكانك.

بعد أن جلست قال لي:

ـ لماذا تريد الزواج من هنا؟

أليس السبب واضحًا؟ أتريد أن أقول أنّي لقيط؟ أنا أتجنّب هذا الشيء مذ أن كنتُ صغيرًا. أكره هذا الاسم الذي لم أجلبه لنفسي. ساقه لي القدر من غير حولٍ منّي ولا قوّة.

ـ لأنّي يتيم.

ـ وتسكن عند أعمامك؟

ـ لا.. أعني أنّي لقيط.

بدأ يتحوّل شعور الضيق إلى مهانة. حقيقةً، لم أتحدّث عن ظروف ولادتي من قبل. كانت حقيقة غير منطوقة. وحتّى لو كنتُ سأتحدّثُ عنها مستقبلاً لم أتوقّع أن يكون الحديث بهذا السياق.

الأمرُ في غاية الحساسية بالنّسبة لي. ونشأتي في أسرة، كما هو حال باقي الخلق، زاد من حساسيته.

الآن وأنا أقول لشخص غريب أنّي نتاج متعة غير شرعية، وينظر إليّ نظرة المقيّم لحياتي، أشعر أنّي أغصّ بالقهر. أجابني من غير ترحيب وكأنّه يتحدّث عن معاملة حكومية.

ـ هناك بيانات لابد من تعبئتها ومن ثم بعد دراستها نجيب عليك.

التفتَ إلى جهاز الكمبيوتر وأخذ يضغط بعض الأزرار. في هذه الأثناء فكّرت: الزّواج لا ينبغي أن يكون هكذا. تعبئة استبيان.. تحقيق من شخص غريب.. هذه ليست عملية طبيعية للزواج أبدًا. قطع الرجل أفكاري وقال:

ـ الإسم؟

ـ مشعل.

ـ من سكّان هذه المدينة؟

ـ نعم.

ـ سكنك إيجار أم ملك؟

ـ أسكن مع أسرة.

ـ ماذا تعني؟

أخذ قلبي يدق أكثر فأكثر من الحنق.

ـ أسكن مع الذين تكفّلوا بي.

ـ ليسوا أسرتك.

ـ ...

ـ عملك حكومي أم خاص؟

ـ خاص.

ـ كم مرتّبك الشّهري؟

ـ خمسة عشر ألف ريال.

كان يسأل بشكل فظ. كأنّه يُحقّق مع مجرم أو يتعامل مع رجل موبوء لا يريد سوى أن ينهي اللقاء معه. قال:

ـ ولماذا تريد الزّواج؟

سأل وكأنه مستغرب أو متشكك. لماذا أريد الزواج؟ أجادٌ أنت؟ ما هذا السؤال الغبي! بعد سلسلة من الأسئلة الشخصية جدًا خرجت من عندهم. قال لي قبل أن أخرج:

ـ سندرس الملف ونعاود الاتّصال بك لاحقًا.

خرجتُ من عنده وركبتُ سيّارتي. شغلتها لكنّي لم أتحرّك. حاولت أن أضبط تنفسي لكنّي فشلت. ضربت المِقوَد بقوّة. ما هذا الذّل. القدر هو الذي أذلّني. والله لا أعود إليه.

مرّت الأيّام. لم يعاودوا الاتّصال ولا أنا قبلتُ مهانة العودة إليهم.

ألا لـــيت شـــعـــري، والحوادث جمّةٌ

وما كنت في دهري إلى الناس شاكيا

أمخترمـــي ريـــب المـــنـــون بـحـســـرة

تـبـلّـغ نـفـسي مـن شـجاها الـتراقـيا؟

إلى الله أشـكـو أنّ في الـصـدر حـاجـة

تـمـــر بها الأيـــام وهـي كـــمـــا هـيـا

أبو أحمد عبدالله بن ورقاء الشيباني

الثلاثاء 29 محرّم 1432هـ ــ 4 يناير 2011م

ها هي...

قرابة السنوات العشر، تعلّمت منها أن أسيء الظّن بمستقبلي، لم أعد أقوى على مواجهة خيبة الظن التي أواجهها يوميًا. كل شيء سكن، لم تعد هناك أصوات، صمتٌ خيّم على حياتي، حتى صراخي بات صامتًا يائسًا.

أقضي يومي بهدوء. لا شيء لافت لانتباهي، لا شيء يفرحني من أعماق قلبي، مجرّد أعمال روتينية أقضيها حتى لا أُصاب بالجنون.

لقد دفعني قدَري إلى الكفر بما كنتُ أظنّ أنه الحق. لقد قدّم قدَري مرافعته بكل براعة. أتى بكل الأدلّة والبراهين، واستشهد بحياتي؛ ليثبت عدم جدوى الأمل. أتمنى ألّا يلومني أحد، فما ذنبي إن لم أجد ما يُكذّبه وينقض دعواه.

كنت أُكثر من استخدام كلمة (القدَر) لكن مع مرور الوقت لم أستطع أن أُخفي حقيقة الأمر، فالله هو من قدّر المقادير، هو الذي بيده كل شيء.

لماذا هذا الأذى؟

لم أدَعُ في شيء مثل ما كنت أدعو ربّي أن يجمعني بشخصٍ يتقاسم معي خبزي وحياتي وروحي، منذ أن بلغت الخامسة عشر

ربيعًا وأنا أدعو الله أن يكتب لي الحب، أن يجمعني بامرأة تحبني وأحبّها، أطلب شيئًا فطريًا أساسيًا لحياة أي إنسان.

مرّت السّنوات ودخلتُ العقد الرّابع من عمري وأنا أدعو وأبتهل في صلاتي، وقبل نومي، في السرّاء والضرّاء، في كل طوافٍ لي حول الكعبة، وفي كل صلاةٍ لي في الروضة، في مسجد الرسول ﷺ لكن، لا شيء.

نعم، لا شيء.

لماذا؟

أنا أخاف الله، أنا مؤمن به تمامًا من دون أدنى شك؛ لكن لماذا تمتلئ الأحاديث والآيات بالأوامر والوعود من الله: «ادعوني أستجب لكم»؟ حسنًا، أنا أدعوك يا رب ــ دائمًا ــ ولا أرتكب الكبائر، ولا أُكثر من الصغائر، امتنعت عن كل طرق الحرام والمنكر التي تؤدي إلى تحقيق رغبتي.

أنا أطرق ــ فقط ــ الأبواب التي توصل إلى الحلال، أطرق الأبواب وأشعر أنها موصدةٌ أمامي، فأشعر كأنني أحيا بأملٍ كاذب زائف، ومن ثم يقتلني همي وغمّي وحسرتي.

هكذا تحدثني نفسي.

يا رب أستغفرك، فأنت أعلم بقدرتي على التحمل، أسألك يا مولاي ألا تحمّلني ما لا أستطيع حمله، سأصلّي طوال الليل أستغفرك.

لكن؛ أحيانًا أشعر أن الصلاة لن تُذهب هذه الأفكار، فهذه

الأفكار باقية، لا تبرح تراودني بطريقةٍ أو بأخرى. ربي، أنت خالقي ورازقي، أعلم ذلك جيدًا، وأؤمن به جيدًا؛ ولكنني على أرض الواقع لا أجد جوابًا لهذا الذي يحدث لي؟

أدعوك ليلَ نهارَ وحدك؛ ولكنني أحسُّ بظلمٍ عجيب يقع علي، ينافي ما أؤمن به من عدلك، أرى صديقي الذي يزني ويشرب يتزوج بمجرّد أنه قرر أن يفعل ذلك، وآخر لا يزال يمارس المنكرات، وله علاقات مشبوهة وهو متزوج، وثالثٌ أُرغم على الزواج وهو لا يريد ذلك، ورابعٌ تافه لا يملك ذرّة عقل، ويُكتَب له الزواج، وآخر تخلّى عن دينك مجاملةً لخلقك في أكثر من موقف؛ كي لا يقع في إحراج، وتيسّر له الزواج.

كلهم دون شروط، دون تعقيدات، بسهولة ويُسر، يتعمّدون معصيتك بكل صفاقة، وأنت تسارع في توفيقهم، وأقاتل لأجل التّمسّك بأوامرك وأنت تتركني وحيدًا منكسرًا، من دون ذنبٍ ارتكبته.

إن كان المعيار هو فعل الخير للحصول على الخير، فهذا المعيار قد تكسّر أمامي.

دعوتك منذ أن كنت صغيرًا، اتّبعت أوامرك، تجنّبت المعاصي، وبعد هذا كلّه، ومن دون كل المنافقين والفاسقين، والعصاة والمتطاولين على حدودك، من دون هذه الفئة الخبيثة جمعاء، مُنعت من التمتع والشعور بالحب، وبهذه الطريقة المؤذية؟ تؤمّلني ثمّ تقتلني، ثم تحييني بالأمل لتقتلني مرّة أخرى. أموت وأحيا مرات

ومرات بأبشع الطّرق، وأكثرها إيلامًا... كأنني اليوم حيٌّ..؛ ولكنني نسيت أن أموت..

أريد أن أعرف الإجابة. وأنا أفكّر، أحس بالقهر، وتحترق أعصابي، وكلّما ساورتني هذه المشاعر أعود وأستغفر ربي، مقتنعًا بأنه سبحانه هو الحق، ودينه الحق، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، فقد حرم الظلم على نفسه، وجعله بيننا محرمًا، وأتذكر: «ولا يظلم ربك أحدًا»، وأتذكر: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير»، وأتذكر: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك عليها من دابة».

لكنّ هذه الأفكار ما تلبث أن تعود، لا أخفي أنني حين أشعر بهذا الشعور أعلم أنني محاصر بالخطيئة، حتّى في مشاعري أحسّ بأنّني مقيّد، أعلم أنني بهذه الأفكار أقوم بمنكر جليل؛ لكنني في النهاية بشر يصعب علي أن أتناسى ما أعانيه من المصاعب والمصائب.

كبرت هذه الأفكار، كبرت وكبرت، ولا أجد لها إجابة.

أحسّ أنّني منافق في بعض الأحيان، كأني رسول يدعو الناس إلى أمرٍ هو نفسه يزداد كفرًا فيه يومًا بعد يوم، تناقض مقرف، أحس بقهر تجاه خالقي ومع هذا كلّه، أحس بالذّنب إن فاتتني صلاة.

بهذه التناقضات أنام وأصحو وأخفض صوت الموسيقى الخارج من التلفاز وقت الأذان وأوقظ أهلي لصلاة الفجر، هكذا بكل تناقض.

مَعَ أنّي توصلت إلى وجود إله وخالق لهذا الكون، ومع أنه يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]؛ إلا أن هناك شيئًا خطيرًا يثور في داخلي بسبب واقعي الذي قدّره لي، الذي لا يد لي فيه! هناك شيء يثور، ولا أعلم ما هو بالضبط؟ كل ما أعلم أنه يهزّني، ومع الوقت أصبحت أسيرًا في دربٍ أودّع فيه حياتي.

يومًا بعد يوم، يزداد سأمي من الحياة، سئمت منها ومن مشكلاتها. يومًا بعد يوم، يأكلني بشراهة من الداخل هذا السّيل من التّفكير. يومًا بعد يوم، تزداد نفسي تضجّرًا من حالي، شيئًا فشيئًا أصبح تفكيري يقتصر على تساؤلاتٍ لا أبوح بها.

الخميس 23 صفر 1432هـ ــ 27 يناير 2011م

سقوط

أدوس أوراق الشّجر المتساقط، يلفح الهواء وجهي، تغزو البرودة أطرافي؛ ولكنّي أمشي غير مُبالٍ، لا لأني سعيد، بل لأن الهموم لم تتركني لأنشغل بهذه الأمور الصّغيرة.

كم هي كبيرة هذه الأمور في نظري الآن، كم هو عظيم أن أنشغل بتقلّبات الطقس، كم سأكون سعيدًا لو أنّني قبّلت رأس زوجتي، وانشغلت بمقتنيات المنزل، أو بماذا أهديها.

لكنّني أمشي تحت أشعّة الشمس حينا، تحت زخّات المطر أحيانا،

أمشي وأتنفس الهواء الرّطب، أمشي وأشم الرّياح الجافة في كل الفصول، في البرد والحر، والمطر والرطوبة والثلج.

أمشي وأنا ألعن عقارب السّاعة، والمارّة، ونفسي وحياتي... وتمر امرأة جميلة وتبتسم لي، لا لشيء، فقط هكذا! وأزداد قهرًا بسبب قلّة حيلتي، ومهما حاولتُ أن أضحك، مهما جاهدت نفسي على أن أتفهّم، يضيع هذا كلّه بنظرة إلى زوجين يمشيان في الشّارع نفسه.

ما أكرهه وأمقته هو أنّي لا أستطيع إظهارَ هذا كلّه، لا لشيء إلا لأنّي جبان، يهمّني أن أُسعد من هم حولي، يهمّني أن أرضيهم، أفعلُ هذا ليرفضني مُجتمعي الأحمق؛ بسبب ذنب شخصٍ آخر، أيّ مجتمع أعيش فيه؟ ولماذا أصرُّ على الانصهار فيه، وهو بهذه السطحية والسخافة والمرض؟ أقسم أن من ينعتهم بعض الناس بـ «الكفّار» الغرب أكثر رحمة وتفهما وأخف عنصرية.

قومي كالجرذان، يأخذون ما ترميه الأمم الأخرى في القمامة ثم يضعونه تاجًا على رؤوسِهم، هؤلاء يأكلون العنصرية، ويعيشون على الطّبقية، ويتنفسون السطحية.

أقول هذا كلّه وأنا لا أحس بأوراق الشّجر تحت قدميّ، ولا أشعر بلفحات الرّياح على وجهي، ولا أستشعر برودة الهواء على خدّي، أمشي على الأرصفة نفسها، وأقطع الشّوارع نفسها، وأسلُكُ الطّريق نفسه كل يوم، وأعتقد أنّي سأصل إلى مكانٍ جديد، أظن، وما أخطر الظنون.

أرى روحي على الأرض، ولا أريد أن أنتشلها من مكانها، ليس

لعدم استطاعتي رفعها؛ ولكني لا أستطيع أن أُحمِّل روحي آمالي الثّقيلة كل يوم، فقد انكسر ظهري وهو يحمل تلك الأماني زمنًا طويلًا دون جدوى.

ماذا الآن؟ ماذا بعد الرياح والخريف؟ ماذا بعد المطر والشتاء؟ ماذا بعد الشّمس والرّبيع؟ وماذا بعد الجفاف والصّيف؟ تكرار أبديٌّ مُملّ، لا يحمل سوى مزيد من اليأس والحزن والضياع. ويتجدد ذلك الشعور في داخلي فيقول: ألم يبقَ لي سوى السُّكْر والانحلال والانكسار؟ ماذا أصنع بهذه المبادئ التي أبقتني على تلك الأرصفة؟ ماذا أفعل بتلك الحدود والضوابط والقيم التي رسمتُها؟ ها هي قد أبقتني في دوّامة الضياع والوحدة التي أعيشها. ربّما، ربّما إن تركتها، إن تركتُ تلك المبادئ، ربّما أجدُ شيئًا ما يسعدني، شيئًا ما فقط، ينتشلني مما أنا فيه.

انهمرت عليّ الوساوس انهمارًا من دون توقّف؛ كلما دفعت فكرة هطلت عشر غيرها. ما فائدة صلاتي إن كانت تذكّرني بمن أدعوه ولا يستجيب؟ لِمَ أتبنّى دين إلهٍ يحاربني مُجتمعه؟ أكره نفسي بسبب هذه الكلمات؛ ولكني انتظرت كثيرًا ولم أر نتيجة، فتحت أبواب روحي للآمال كل يوم دون كلل، رفعتُ يدي أدعو ووضعت رأسي على الأرض راجيًا، وها هو رجائي يخيب كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة وثانية ولحظة، يخيب ظنّي، يخيب رجائي، يخيب دعائي.

أي دليل أعظم من هذا؟ أي برهانٍ أوضح من هذا؟ أي آية أبلغ من هذه؟ قل لي يا زمن وإلا فلا تكمم فمي، قولي لي يا نفسي؟ وإلا فاصمتي ولا تعكّري علي كفري.

الفصل السّادس

هروب..

«إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم
غير أشقياء يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء،
أما أنا فشقية لأني لا أعرف لي داء فأعالجه،
ولا يوم شفاء فأرجوه»

مصطفى لطفي المنفلوطي

الاثنين 7 شوّال 1432هـ ــ 5 سبتمبر 2011م

انتدبتني الشّركة الّتي أعملُ فيها إلى هولندا. كان من المتوّقع أن يستمر الانتداب مدّة تسعة أشهر في مدينة روتردام، قبلتُ المهمّة من غير اكتراث؛ فقد زُرت هذه المدينة من قبل للعمل، ولم تترك أثرًا فيَّ.

لولا ضيق صدري القاتل وتبرّمي الشّديد من مجتمعي، لما قبلت هذه المهمّة، لكنّها كانت فرصة جيّدة للهروب من مرارة واقعي، من تفاهة مجتمعي، ومن مقبرة أحلامي.

في الأسابيع الأولى، ضاع وقتي كلّه في تأثيث شقتّي وقضاء حاجاتي، كاستخراج هاتف، وبطاقة هويّة، ورخصة عملٍ وغيرها. لم تزرني أفكاري السوداء طوال تلك المدّة. ذهبتُ إلى العمل، طبختُ

أكلي، ونمتُ على سريري، من دون إثارة أو صخبٍ أو تشويش من الدّاخل أو الخارج.

كنت في حالة متواصلة من تحويل أسعار المشتريات في رأسي؛ من اليورو إلى الريال. الهاتف المتنقّل سيكلّفني قرابة السبعين يورو في الشّهر. التأثيث كلّف قرابة الألفين يورو. الحليب كان غاليًا بعض الشيء؛ أربعة يورو. لكني أحب الحليب. لم أقرر بعد إن كنت سأشتري تلفازًا.

كان عملي يقع في حيٍّ يدعى نورد (Noord). من الأمور التي استحسنتها موقع مكتبي في الشّركة التي انتُدِبْتُ إليها؛ فمكتبي يطلُّ على زقاق ضيّق مليء بالدكاكين الصّغيرة. كان عشرات النّاس يجولون في الشارع صباحًا، وبعد الظهر يصيرون بالمئات.. ثمةُ مقاه، مطاعم، محلات ملابس جنبًا إلى جنب مع مدّ الزّقاق. رأيتُ متبضّعين عربًا وهنودًا وبيضًا وآسيويّين؛ بينما الباعة كانوا في المجمل هولنديين.

المثير أنّ الباعة جميعا كانوا يفتتحون متاجرهم كلّ يوم في التّوقيت نفسه، وكل فردٍ منهم كان له جدولٌ خاص لا يحيد عنه، فالخبّاز يذهب إلى الغداء كل يوم في الثانية عشرة ظهرًا، وصاحب محل الحلوى يأخذ استراحة لشرب الدّخان في السّاعة الواحدة من كل يوم، والصّيدلي كان يقابل مصلّح السّاعات عند الحدّاد، لتبادل أطراف الحديث في السّاعة الرّابعة عصرًا.

ممّا لفتَ انتباهي ــ من بين هؤلاء كلّهم ــ فتاة كانت تأتي كل

يوم من أقصى الشّارع، في السّاعة العاشرة والنّصف، تدخل محل الحلويات وتطلب قهوة وحبّة واحدة من الشوكولاتة، بعد ذلك، تجلس على أحد الكراسي مدّة نصف ساعة لتقرأ كتابها وتشرب قهوتها، ثم تذهب؛ ولكن من الطّرف الآخر من الشّارع الذي أتت منه.

من أين تأتي؟ وإلى أين تذهب؟ لا أدري. كان سكونها مثيرًا، وابتسامتها دافئة. كلّ يوم في السّاعة العاشرة والنّصف صباحًا يكون موعدي. لمحتها أوّل مرّة مصادفةً من مكتبي، بعد ذلك أخذتُ أتقصّد أن أقف قُرب الشرفة كلّ صباح لأراها.

الثلاثاء 11 محرّم 1433هـ ــ 6 ديسمبر 2011م

بعد قرابة ثلاثة أشهر، دخل علينا فصل الشّتاء، وكان المطر ينهمرُ باستمرار. لكن في يوم الخميس هذا، ومع صفاء الجَو وتنبّؤات الصحف بعدم هطول المطر؛ إلا أني أخذتُ معي مظلتي الشمسية، جادلتُ نفسي ابتداءً؛ ولكنّي قررت أن آخذها على كل حال تحسّبًا لأي طارئ.

السّاعة السّابعة مساءً، وأنا أستعدُّ ــ الآن ــ للعودة إلى منزلي، ومن دون مقدّمات، بدأ المطر يهطل بغزارة، خرجتُ من باب المبنى الرّئيسي كان الجميع موشّحًا بشيءٍ ما ليقيهم المطر. البعض توشّح معطفًا، الآخرون مظلّات، وقلّة كانت عليهم أكياسٌ بلاستيكية كبيرة وفسفورية اللون.

وقفتُ لأتأمّل المنظر. كان الهواء يعصف بشدّة. أغصان الأشجار تتراقص. الأرض بدت وكأنها تلمع أو تدمع مع المطر. أضواء الشارع الصفراء كشفت عن القطرات التي أخذت تهطل وكأنّها شهب منزلة.

وقفتُ عند الباب وأخرجت المظلّة لأفتحها. في تلك الأثناء، كانت هناك فتاة تقف لتحتمي بشُرفة المبنى من المطر، وضعَتْ يدها على فمها ونفخَتْ من شدّة البرد، بينما أمسكَتْ يدها الأخرى

هاتفها الذي كانت تتكلّم فيه، بدا وجهها مألوفًا، وبعد لحظات أدركتُ أنها فتاتي التي أعرفها. فتاة العاشرة والنّصف صباحًا.

لم أستوعب أنها هي لأول وهلة، فأنا لم أرَها بهذا القرب من قبل.

تحت ترانيم المطر

كانت في غاية الحُسن.

تورّد وجهها القمحي المستدير بسبب البرد؛ بينما نجحت بعض قطرات المطر في تبليل قليلٍ من شعرها الخمري الذي غطى كتفيها.

كانت حواجبها سميكة ومسبوغة ومتروكة على طبيعتها المتقوّسة بعض الشيء. لاحظت في عينيها الواسعتين فضولاً من أوّل نظرة. لم أستطع معرفة لون عينيها. كانت تتغير بين درجات الغمق كلّما نظرت فيها. أحاط الكحل الخفيف رموشها المتوسطة الطول؛ وبعكس عينيها الواسعتين، كان أنفها في غاية الدّقّة.

رُسِمت حبّات نمشٍ قليلة وكستنائية اللون أسفلَ عينيها. وكأنها كانت قطرات متناثرة من كحل عينيها. كانت حبّات النمش صغيرة وقليلة جدًا؛ إلا أنها أضفت شيئًا من السحرية على مُحيّاها. كأنّ ملائكة تركت عَلمًا ليعرف الناس أن هذه الفتاة مختلفة.

لم أستطع أن أكتشف لو أنّ شفتيها كانتا متورّدتين بطبيعتهما أم بسبب أحمر الشفاة. عن يمينها ويسارها نونتان تدعواني إلى العناق. عندما فتحت ثغرها لتحدّثني، كشفت عن أسنانها البيضاء التي لم تكن كبيرة ولا صغيرة. كان حجمها مناسبًا كما هو كلّ شيءٍ فيها. علّقت حلقة من لؤلؤ على كلٍّ من أذنيها الصغيرتين. عدا الكحل الأسود، لم تضع أي مسحوقٍ على وجهها.

كانت هناك شامة في نحرها عند ترقوتها اليُمنى؛ بالكاد رأيتها إذ كان معطفها الرمادي ذا الياقة الطويلة يحجبها بعض الشيء. لبستْ تحته ثوبًا كستنائيًا غامقًا وقسمتْه بحزامٍ أسود اللون. من الأعلى كان الثوب يشبه القميص، بأزرارٍ وياقة. من الأسفل تنّورة وصلت إلى ركبتيها.

ما إن رأتني حتّى سارعَتْ في إنهاء محادثتها الهاتفية قائلة:

ـ عفوًا!

أجبتُها مستغربًا وبشيء من السعادة:

ـ نعم.

ابتسمَتْ ابتسامة صغيرة؛ نظرت إلي بفضول وقالت بثقة:

ـ هل لي أن أسألك سؤالًا؟

ارتبكتُ قليلاً من نظرتها الفاحصة. أو هكذا أقول لنفسي. أعتقد أن جمالها هو الذي أربكني. بادلت نبرتها الواثقة بثقة مصطنعة وقلت:

ـ تفضّلي.

ـ أذاهبٌ إلى موقف الحافلات؟

ـ نعم؛ ولكن إلى الموقف الذي يقع في الشّارع رقم خمسة، وليس إلى هذا الموقف القريب.

ـ رائع! أنا أريدُ الذّهاب إلى ذلك الموقف أيضًا، لكن...

ثمّ أكملتْ وهي تشير إلى الأعلى:

ـ كما ترى، المطر يهطل بشدّة، وأنا لا أحمل مظلّة معي، هل

أستطيع أن أحتمي من المطر تحت مظلّتك، معك؟

لو حصل هذا في السّابق، لسارعتُ إلى تحليل المسألة..؛ بناءً على قِيَم دينية متعلّقة بالاحتكاك بنساءٍ أجنبيات. ربّما كنتُ سأعطيها المظلة وأمشي تحت المطر. انعكس موقفي من كل إيمانيّاتي بإجابتي لها من غير تردد:

ـ بكلّ سرور.

ـ رائع! أشكرك جزيل الشّكر.

مددت ذراعي التي تُمسك بالمظلّة حتى تحتمي بها.

التَصَقَتْ بي ووضعتْ رأسها تحت المظلّة.

كان الشعورُ لذيذًا.

التفَتَتْ إلي وقالت:

ـ جاهز؟

أجبتها بهدوء وأنا أهم بالمشي:

ـ أنا جاهزٌ منذ أن ولدتني أمّي.

نظرتْ إلي بابتسامة حذرة؛ ابتسامة تقول «أنت ظريف»؛ ثمّ مشينا.

كان الهواء يعصف بنا بشدة؛ مما دفع المطر إلينا من جميع الجهات، فتمسَّكْتُ أكثر بمقبض المِظلّة كي لا تطير، ومع هذه الأجواء لم يتسنَّ لي ـ أو حتى لها ـ الإطالة في الحديث، سوى أنّنا تبادلنا بعض الأسئلة العابرة. بادرتني قائلة:

ـ أتعمل في ذلك المبنى؟

ـ نعم. وأنتِ؟

ـ أعمل في المدرسة التي تبعد بعض الأمتار عن مكان عملكِ.

ـ مُدرّسة؟

ـ نعم.

وصلنا إلى موقف الحافلات، ومن حسن حظّنا أن الحافلة كانت قد وصلت في تلك اللحظة أيضًا. جلستُ في كرسيٍّ وجلست هي في الكرسي المقابل. كنتُ أهمّ بإغلاق المظلّة بينما أخرجت ربطة دائرية لتربط شعرها. بدت الشامة على عنقها بشكل أوضح. كانت بضعة قطرات من المطر تنحدر على عنقها. قالَتْ وهي تنظر إلى قدميها:

ـ أوه تبلّل حذائي.

لم أقل شيئًا، فأكمَلَتْ:

ـ ما اسمك؟

ـ مشعل.

ـ ميشيل؟

ـ لا، مشعل.

ـ مشال؟

ـ مشعل.

ـ مشعل؟

ـ نعم، مشعل. يبدو أن الماء دخل حذائك ودخل أذنك أيضًا.

ضَحِكَتْ.

سألتُها:

ـ وأنتِ؟

ـ ماريّا.

ـ ماريّا، تشرّفنا.

ـ مشعل؟

ـ نعم.

ـ هذا ليس اسمًا مألوفًا.

ـ هذا صحيح.

ـ من أين أنت؟

ـ ما رأيكِ أنتِ؟

ـ مممم... أنا جيّدة في هذه الألعاب. سأخمّن...

تفحّصتني ثمّ قالت:

ـ رومانيا!

ـ يبدو أنّ الماء دخل عينيكِ الآن، أنا من السّعودية.

ـ أهلًا بأهل البترول!

ـ أهلًا وسهلًا.

سكتت قليلًا ثم قالت:

ـ شاكرة لك.

ـ على ماذا؟

ـ على إنقاذي من ورطتي، الآن أستطيع أن أرتاح.

ـ على الرّحب والسّعة، ولكنّ...

ـ ولكن ماذا؟

ـ ولكن يبدو لي أنّكِ نسيتِ ورطتكِ الأخرى.

أجابت بابتسامة ساخرة:

ـ أنا ليست لدي ورطات أو مشكلات، كل شيء لدي محسوب بدقّة.

ـ أنتِ الآن استطعتِ الوصول من مقرّ عملك إلى الحافلة بسلام، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ لكن ماذا عن مسيرتك من الحافلة إلى منزلك؟

ـ أوه. نسيتُ ذلك تمامًا!

نَظَرَت إلى الأرض للحظات وهي تفكر في حل، ثم نظرت إلي وقالت:

ـ هل تسكن قرب محطّة (شيدام) التي سأنزل فيها؟

ـ سأنزل في تلك المحطة نعم؛ ولكنّي سأركبُ حافلةً أخرى لتقلّني إلى شقّتي.

ـ أنا أسكن على مقربة من المحطّة. ما رأيك أن نمشي إلى شقّتي، ثم أُقِلُّكَ إلى شقتك بسيّارتي؟

ـ ما دُمتِ تملكين سيّارة، لماذا تركبين الحافلة أصلًا؟

ـ من الصعب إيجاد موقف، وأحبّ المشي، وظننتُ أن الطقس اليوم سيكون مشمسًا رغم الهواء البارد. دع عنك ملامي وقل لي: ما رأيك في فكرتي؟

ـ نظرًا لسوء الجَو، وأن الحافلة ستصل بعد نصف ساعة؛ أرى أنها فكرة مناسبة جدًا. ستوفّرين علي عناء انتظار الحافلة الأخرى تحت المطر.

ـ اتّفقنا.

وصلنا إلى محطّة (شيدام). نَزَلتُ من الحافلة أوّلًا، ولحقتني ماريّا. ما إن وضعت قدمها على الأرض المبتلة حتّى فقدت توازنها وكادت تنزلق لولا تمسّكها بي. الحقيقة أن تمسّكها المفاجئ أفقد توازن قلبي.

ـ أأنتِ بخير؟

ـ أوه، نعم، نعم.. اسمع يا مشعل..

ـ ماذا؟

ـ هل أستطيع أن أتمسّك بك، هذا الحذاء ليس مهيّأً للأمطار، وأخشى في المرّة القادمة أن أسقط ولا تُنقذني.

وقبل أن أجيبها التصقت بي، وعقدت ساعدها الأيمن بساعدي الأيسر، ثمّ وضعت يدها اليسرى على يدي اليمنى الممسكة بالمظلّة..وقفتُ لأفهم ما يحدث.. التفتتْ إلي وقالت:

ـ ما بك؟

أجبتها بسخرية لتخفي سعادتي:

ـ لا، لا شيء. لنسرع كي لا يتبلّل حذاؤك أكثر.

قلتُ ما قلت بلساني؛ ولكن قلبي كان يريد ألّا نتحرّك من مكاننا. مع وجود البرد، كان الدّفء يملأني وهي تحتمي بي. لا أدري لماذا؟ ولكن مع خرير المطر ودوي الرياح كان جسدها يؤزّني للالتصاق بها أكثر. أحسستُ بإثارة مع ما خالط ذلك من الشعور بارتكاب خطيئة.

أقول خطيئة؛ لأنّي ما زلت أصنّف نفسي كمسلم مع أنّني بعيد كل البعد منه.

مرّت عشر دقائق ونحن نمشي، فقلتُ لها مستغربًا:

ـ أواثقةٌ أنّك تعرفين طريق بيتك؟ قلتِ أنّكِ تسكنين قرب الموقف.

ـ يا عزيزي، لا تستعجل فقد اقتربنا.

ـ أخشى أنّكِ تريدين اختطافي؛ فقد حاولن قبلكِ نساء كثيرات ولم يفلحن.

ـ ما أحلى الخبر وأغربه في الصّحف: «هولندية تخطف سعوديًا».

ـ هممممم.. ربّما تحتاجين إلى المال وتريدين فدية؟

ـ لا أحتاج إلى المال.

ـ أنتِ التي وصفتني بـ (أهل البترول) وليس أنا.

ـ صدقتْ. لا أمانع ببضعة آلاف من اليوروهات، لعلّي أشتري أحذية مضادّة للمطر.

أعجبني فيها سرعة ردودها، ولطفها وخفّة ظلّها. لم تتكلّف في لباسها ولا كلامها؛ ولكنها في غاية الجمال.

ـ وصلنا، هذا هو المبنى. هل تريد أن أكبّل يديك؟ أم ستختصرُ الوقت وتدفع لي عشرة آلاف يورو؟

ـ فقط عشرة آلاف؟

ـ اعذرني، لست متمرّسة في مثل هذه الأمور مثلك. الطّريق من هنا يا سيّدي المحترم.

دخلنا إلى العمارة ثمّ المصعد. ظننت أنّنا سنتجّه إلى مواقف السيّارات. فسألتها:

ـ لماذا نحن ذاهبان إلى الأعلى؟ هل وَقَفْتِ سيّارتكِ في السّطح؟

ـ أضحكتني. مفتاح السيّارة وأدوات الخطف في الأعلى.

فتحتْ باب الشّقّة وقالت:

ـ تفضّل تفضّل. اعذرني، فالمكان ليس مرتّبًا.

خطوت بعض الخطوات إلى الدّاخل؛ صالة الجلوس هي أوّل

غرفةٍ واجهتها، تؤثّثها أريكة واحدة تُقابلها مكتبة مليئة بالكتب، وانتبهت فورًا أنّها لم تكن تملك تلفازًا.

ـ تفضّل اجلسْ. ماذا تريد أن تشرب؟

ـ أنا مرتاحٌ في وقوفي، لا أريد أن أطيل عليك.

ـ ماذا دهاك! ألم تسمع بالكرم الهولندي؟ لو علم النّاس أنّك دخلتَ دون شربِ شيءٍ مّا لقتلوني.

ـ أنا أعرف الكرم العربي، أما الهولندي فهو جديد علي.

ـ إذن، أكرِمنا ببعض كرمك العربي واجلس، اعذرني ليس عندي نبيذ، أأسكبُ لك عصيرًا من البرتقال؟

ـ لا تعتذري؛ فأنا لا أشربُ الخمر، الماء يكفي.

ـ أوه! حتى أنا لا أشرب الخمر. إذن استرِح حتّى آتيك بالماء.

ـ وقفتُ عند مكتبتها، فوجدتُ كُتبًا في الفلسفة والأديان والرّوايات والأدب والتّاريخ واليوقا. فوجئت مفاجأة سارّة عند رؤيتي لهذه الكتب؛ لأنّها لم تكتفِ بحُسنها الظّاهري فقط.

ـ اقتربتْ خطواتها، والتفتُّ فإذا بها قادمة ومعها كوبُ الماء.

ـ شكرًا لكِ.

ـ هذا بعضٌ من الكرم الهولندي يا أستاذي.

ـ أنا مبهور! أخبريني، ما قصّة هذه الكتب؟

ـ أحبُّ القراءة.

ـ أرى أنّكِ تقرئين كتب (دستويفسكي).

ـ هل قرأتَ كتاباته من قبل؟

ـ حاولت أن أقرأ «الجريمة والعقاب» لكنّي شخصيًا أعتقد أنّه يُكثر من وصف أدق الأمور وهذا يصيبني بالملل. أحبّ القراءة لأستاذه (تولستوي).

ـ هل قرأت كتابه «الاعتراف»؟

ـ وهل قرأتيه أنتِ؟!

ـ تتكلّم وكأنّك متعجّب.

ـ صراحةً، نعم.

ـ ولمَ؟

ـ يعني، أخشى أن تقولي أنّني ضد المرأة، لكن قلّما أجد نساء لديهم مثل هذه الاهتمامات.

ـ أوه، لقد فات الأوان على هذا. منذ أن قلتَ لي إنّك عربي وقد لحقك العار وانتهى الأمر. وعلى كل حال بدأتُ أشخِّصُ حالك.

ـ صحيح؟

ـ دعني أخمّن: تحبّ كتاباته الدينية؟

ـ نعم.

ـ وهل تحبّ القراءة في الفلسفة؟

ـ ليس كثيرًا، مجرّد الفلسفة المتعلّقة بأصل الكون والخالق.

ـ أوه! إذن؛ لأنّك عربي، فلا بد من أنّك قرأت لابن رُشْد والغزالي؟

ـ حقيقة لا، انشغلت عن القراءة مؤخّرًا.

ـ بماذا؟

ـ بأمور.

ـ -نعم..حتى أنا تشغلني (الأمور). يا للصدفة؛ ولكن هناك وقت للقراءة دائمًا.

ـ صحيح. هل أنتِ مثالية دائمًا؟

ـ مثالية في كلامي، أما أفعالي فأبعد ما تكون عن ذلك.

سكتنا قليلًا. كانت تنظرُ إلى مكتبتها، على حين حاولتُ أن أسترق نظرات خاطفة. الآن تحت أنوار شقّتها بدَتْ أكثر زهوًا وجمالًا ودلالًا. من النّادر أن تجد امرأة جميلة ومثقّفة في الوقت نفسه.

قالت:

ـ إذن تحبُّ أن تقرأ في الأديان؟

ـ نعم.

ـ مسلم؟

سكتُّ قليلًا، سؤال وجيه، ولا أشرب الخمر ولا أدخّن، وليست لدي علاقات (محرّمة)؛ ولكن كل هذا في الظّاهر؛ أمّا ما أخفيه هو استنكار تام لكل ما يحمله هذا الدّين.

أجبتها:

ـ نعم.

حتى ومجتمعي لا يحيط بي؛ هنا حيث لا يراني أحد؛ أجد نفسي مجبرًا على قول شيء دون أن أكون مقتنعًا به. قالت ماريا:

ـ لماذا تردّدت؟

ـ لا أعلم لماذا. لنقل: لستُ على أتم ما يرام هذه الأيام. ماذا عنكِ؟

ـ أنا؟ ماذا عني؟ أنا كثيرة التّساؤل، ترعرعت على المسيحية، (المورمون) تحديدًا؛ لكن..

ـ مهلًا، ما الذي أتى بالمورمون إلى هولندا؟ هم موجودون في أمريكا الشمالية أليس كذلك؟

ـ دعني أُكمل، وسأعود لقصّة المورمون.

ـ تفضلي.

ـ في الواقع لا أحرص إلا على أخلاقيّات ديني، إذ أنّي لم أستطع (هضم) ديني كعقيدة وعبادات.

ـ ماذا تعنين بـ (أخلاقيّات) دينكِ؟

ـ أحرص على الأعمال التطوّعية ومساعدة النّاس، وأحاول قدر الإمكان أن أبتسم في وجه الغريب. احتكاكي الجسدي بالرّجال لا يتعدّى المصافحة، ولا أشرب الخمر. لكن مثلاً لا أذهب إلى الكنيسة ولا أقرأ الكتاب المقدّس.

ـ هذا مثيرٌ للاهتمام.

ـ بالفعل، دائمًا ما أجد نفسي تقول ذلك عني أيضًا.. هاها..

ـ لكن ما الذي يردعك عن فعل أمورٍ كشرب الخمر بما أنّك لا تؤمنين بدينٍ يحرّمه

ـ القضيّة صعبةٌ وسهلة. سهلة لأنّي تربّيت على هذه الأمور؛ فلم أتعلّق بالخمر مثلاً حتّى أجاهد نفسي لكي لا أشربه، وصعبة لأنّي أحسُّ أنّي لوحدي في هذه الدّنيا. في السّابق كان ديني يدفعني لفعل الخير؛ أمّا الآن فأمارس هذه (الأخلاقيات) بعيدًا عن الدين ولدوافع داخلية لا أعرف أصلها. أتساءل من الحين للآخر: لماذا أفعل ما أفعله؟

ـ قلتِ إنّكِ تحسّين أنّكِ وحدك في الدّنيا؟

ـ لا أعلم. أعني: أنا مؤمنة بوجود خالق؛ ولكن من دون دين فلا أحس أني متصلة به. هل يبدو كلامي معقّدًا؟

ـ أوضح ممّا تتصوّرين.

ـ ماذا عنك؟ هل أنت مسلم جيّد؟

ـ (جيّد)؟ لا أدري ما تصنيفي؟ أصلّي، وأصوم، ولا أشرب الخمر...

ـ والنّساء؟

ـ الشّيء نفسه.

ـ هل أنت متزوّج إذن؟

ـ لا، أبدًا، بتاتًا.

ـ ...

ـ لا أدري؛ ولكنّي أمرُّ بما تمرّين به، وأعلم تمامًا الحيرة التي تتكلّمين عنها.

ـ صحيح؟

ـ نعم، البحث عن معنىً لحياتك رحلة سامية لا شك، أريد أن أبث همومي في الليل لأحد، وأحسُّ أنّه يستمع لي ويتفاعل، ليس المهم أن يستمع لي، المهم أن أشعر أنا باستماعه وتفاعله.

ـ وهل أيضًا لا تستطيع (هضم) دينك مثلي؟

ـ لا أدري.. اعتقدت أني أهضمه، ولكن المشكلة عندي في عدم شعوري بتفاعل (المستمع) وفي واقع من يقولون أنهم مستمعون، وإلى بعض التعقيدات التي ليس من المناسب الدخول فيها الآن.

ـ والحل؟

ـ البحث والسّؤال.

ـ إذن، أخبرني إن وجدْتَ الحقيقة.

ـ حسنًا.

ـ هل أخبرك أحدًا من قبل؟

ـ أخبرني ماذا؟

ـ أن سجاياك بسيطة لطيفة؟

ـ أنا معقّد، صدّقيني. خبّريني أكثر عن قصّة (المورمون) هذه. ظننت أنّ هذا المذهب في أمريكا فقط؟

ـ صحيح، هو في أمريكا بوجهٍ رئيسي؛ ولكن توجد بعض الأقليّات هنا وهناك، أصولي مغربية أساسًا؛ ولكن انتقل أبي إلى أمريكا واعتنق دينهم وتزوّج من أمّي التي تعتنق مذهب المورمون، ثم انتقل إلى هولندا... وها أنا ذا.

ـ أوه، الأخت من أصول عربية إذن؟

ـ سلام عليكم. (قالتها باللغة العربية).

ـ أهلاً وسهلًا.

في خضم الكلام تركنا المكتبة وجلسنا على الأريكة.

ـ هل هذه أمّكِ في الصّورة؟

ـ نعمْ، توفّيت قبل ثمانية أشهر.

ـ الله يرحمها.

ـ كانتْ طيبة جدًا.

ـ ماذا عن أبيك؟

ـ هو الآخر وافته المنيّة قبل سنتين.

ـ ألديكِ إخوة؟

ـ لا.

ـ نظرَتْ إلى أصابع يدها وهي تقلّبها، ثمّ قالت:

ـ لكن دعنا من هذا، ماذا عنك؟

ـ لم أشأ أن أخبرها أني لقيط. فقلت:

ـ مثلكِ أنا... أنا الابن الأوحَد.

ـ ..

ـ ماريّا.

ـ نعم.

ـ شكرًا على كوب الماء، من ألذّ ما شربت. ألا تنوين إيصالي إلى منزلي؟

ـ أوه نسيت، أردتُ إبقاءك هنا أكثر.

ـ ظننت أنّ علاقتك بالرّجال الأغراب لا تتعدّى المصافحة؟

أجابت بسخرية:

ـ بلى؛ ولكن حمّامي يحتاج إلى سباكة وأنوي استغلال طيبتك.

ـ وهل أبدو سبّاكًا لحضرتك؟

ـ لا، ولكن الدنيا مليئة بالعجائب!

أكملنا حديثنا في السيّارة. كان حديثًا شائقًا عميقًا مليئًا بالضحك أيضًا.

أذكر أننا وصلنا إلى شقّتي في السّاعة التاسعة مساءً؛ ولكنّي لم أنزل من السيّارة حتّى العاشرة؛ إذ تحدّثنا في كلِّ شيء. ما استغربته هو السهولة التي وجدتها في الحديث معها مع أنّي لا أعرفها.

ـ وعطلة نهاية الأسبوع يا مشعل، ماذا عنها؟

ـ كل من أعرفهم هنا يذهبون إلى الحانات في العطل، وأنا تركيبتي لا تصلح لهذه الأماكن. ماذا عنكِ؟

ـ أقضي الوقت مع أصدقائي، أقرأ، وأذهب إلى السّينما من حينٍ إلى آخر. أحبُّ أن أقوم برحلات إلى الأرياف المجاورة.

ـ لعلّكِ تأخذيني إلى الرّيف إذن في يومٍ من الأيّام.

ـ سأسعد بذلك.

ـ نراكم على خير.

ـ شكرًا على إنقاذي مساء اليوم.

ـ شرفٌ وسرور.

ابتسمت وأطالت النّظر في عيني.

ـ إلى اللقاء أيّها اللطيف.

ـ إلى اللقاء.

فكّرتُ. ثمّ ماذا يا أخ مشعل؟ ماذا ستفعل مع هذه الفتاة؟ إن لم تكن تنوي أن تتعدَّ «المصافحة»، فلماذا ترهق نفسك ومشاعرك معها؟

لكن، لستُ أنا الذي أتى بها إلى حياتي، ولستُ أنا الذي امتنعتُ باختياري عن الزواج، ولستُ أنا الذي قدّر على نفسي الوحدة، ولستُ أنا من لا يستجيب دعواتي.

على أثر تلك الليلة اللذيذة أحسست بسعادة لم أشعر بها منذ

زمن. حديثي معها انتشلني من الإحباط، ولا أدري لماذا؟ هلّ لأنّي قضيتُ ليلة أتسامر فيها مع امرأةٍ غاية في الجمال والثقافة والجاذبية؟ هل كل ما كنتُ أحتاج إليه هو أن ألقى قبولًا من محيطي؟

هل لأنّنا تحدّثنا عن الإيمان والقضاء والقدر باستفاضة؛ ما ساعد في تفريغ ما في عقلي من أفكار وهموم؟ هل لأنّي التقيت بشخصٍ يقبلني كما أنا دون أحكام سابقة وقذارة طبقية؟ لا أدري، كل ما في الأمر أنّي هنا في هولندا، في هذه الغربة، وجدتُ وطنًا لم أجده في بلادي.

تملّكني السّكون شيئًا فشيئًا، وجدتُ نفسي أفكر في حالي.

مشكلتي أني أجد تعارضًا بين واقعي وأفعالي من جهة، وظنّي بالله وما أجده من وعود في القرآن؛ يدفعني هذا التّعارض لإعادة تقييم موقفي من الدين. مشكلتي أني أجد دينًا يدّعي أنه يهدي للتي هي أقوم، وأجد مجتمعًا ضالاً مضلاً بأمر هذا الدين. أجد وعودًا بالطمأنينة وأنا في شقاء. أسمع عن رحمة الله ولا أعيشها. أليس هذا دليلاً كافيًا على سقوط كل الأديان؟

ربّما الله موجود. النقاشات التي دارت بين خالد وأحمد دفعتني؛ لأن أقول في نفسي: هو موجود. لكنّ وجوده في حد ذاته زاد من حيرتي حول حقيقته. الواقع المُظلم ينفي وجوده. وأتباع دينه القاسون ينفون بأعمالهم صحّة الدين وصفات الإله الذي يعبدونه. لكن المنطق يفرض وجود مبدئ ما. وأغلب من في الأرض سعداء به. ما المشكلة إذًا؟

بعد طول تفكير أدركتُ أنّني إن كنتُ فعلًا أريد أن أرتاح، علي أن أبحث في هذه المسألة أكثر. بتسلسل منطقي، لا بعشوائية. أنا مضطرب الآن وكلّما حاولت التركيز أجد صورة ماريّا أمامي.

الأربعاء 12 محرّم 1433هـ ــ 7 ديسمبر 2011م

في اليوم التّالي، تملّكتني حيرة. ها أنا أقف عند نافذة مكتبي، وأرى ما أراه يوميًا. التحركات والطقوس نفسها وفي الساعة نفسها، ولا يهمّني ما يفعلونه. يهمّني تلك الشمس المشرقة التي تأتي من آخر الزقاق.

هل أصطنع (مصادفة) وأنزل إلى المقهى لأقابلها؟

حزمتُ أمري وتوجّهت إلى الأسفل. عندما رأيتها تقترب، اضطربت. أدرت ظهري وتشاغلت بالوقوف عند بائع الزهور.

أمّي تحبّ الورود. كانت تأخذني معها لشرائها عندما كنتُ صغيرًا. جاء صوتها الجريء المتأمّل خلفي:

ــ ستكون الحياة مملّة لو لم تكن للزهور ألوان.

التفت وتظاهرت أنّني فوجئت:

ــ أهلًا.

رفعت يدها لتحيّيني وقلتُ ــ وكأني لا أعرف الجواب ــ:

ــ ماذا تفعلين هنا؟

ــ سأتوجّهُ إلى بائع القهوة. ماذا عنك؟ أجئت لتشتري لي وردة؟

أجبتها ساخرًا:

ـ كيف عرفتِ؟

ـ حدسي لا يخونني.

ـ كم أنتِ محظوظة.

حاولت أن أجد سبيلاً لأن أطيل الحديث معها فقلت:

ـ سأذهب لأشتري القهوة أيضًا.

ـ أتود مرافقتي إلى محل القهوة؟

ـ هيّا بنا

ـ حسنًا.

ثم قالت بحزمٍ مصطنع:

ـ لكن لا تتوقّع أن أدفع عنك الحساب. الماء في شقّتي كان بالمجّان أمّا هنا عليك أن تتولّى أمر نفسك.

بادلتها الابتسام وتوجّهنا إلى المحل. بعد أن طلبنا القهوة وتبادلنا أطراف الحديث قالت:

ـ سأخرج مع أصدقائي يوم السبت.

قاطعتها:

ـ وما المطلوب منّي؟

ـ أوه! اصبر حتى أكمل.

ـ تفضّلي.

ـ أودُّ أن أعرّفك إلى أصدقائي. ما رأيك؟

ـ أين ستذهبون؟

ـ إلى مطعم جزائري جيّد. نذهب إليه مرّة أو مرّتين في الأسبوع. نتسكّع. ربّما نذهب إلى السينما بعد ذلك.

ـ لا أدري.

ـ هيّا! ستكون تجربة جميلة. يكفي أنّك سترى كيف يحبني الجميع ويضعونني فوق رؤوسهم.

ـ هل هذا المشهد التخيّلي سيكون جزءًا من الفيلم الذي ستشاهدونه؟

ـ تتهكّم؟

ـ أبدًا. أتشرّف بالتعرّف إليهم.

الفصل السابع

من أنا؟

«إذا كان الإنسان ما زال يسائل نفسه: (من أنا)؟ فكيف له أن يعرف ماذا يريد؟ وما هي وسائل تحقيق هذا الذي يريده؟ هل تتسع طاقته لإرادته فيصل، أو تضيق فيتوقف في منتصف الطريق؟ وكيف يراجع نفسه ليتأكد ويستوثق؟ وما هو المرجع والمعيار الذي يهتدي به ويقيس عليه؟»

د. عبد اللطيف الهميِّم

السبت 15 محرّم 1433هـ ــ 10 ديسمبر 2011م

دخلتُ مطعم (Bazar) الذي كان صاخبًا وممتلئًا. نظرت إلى الزبائن وأنا أخلع معطفي وأبحث عن ماريّا. زبائنه من جميع الأجناس: عربًا وهندًا وسندًا وأفارقة وأوروبيين. كان في المطعم قرابة الثلاثين طاولة. النُدَّل كانوا في حركة دؤوبة كالنحل. يقدمون طلبًا على طاولة، ويأخذون طلبات من أخرى. يعيدون توزيع بعض الطاولات والكراسي فيجمعونها أو يفرّقونها.

كانت طاولات المطعم مصنوعة من خشبٍ كستنائي اللون، يحاصرها كراسي مبطّنة بالجلد الأبيض. أصص الورد والنباتات الطّوبية عُلِّقت في جنبات المطعم لتزيّنها كما وضعت بعضها على الطاولات قرب الشموع التي ملأت المكان أيضًا. امتزج نور هذه

الشموع مع الأنوار الصفراء المشعّة من قناديلٍ معلّقة لتنير المكان بضوءٍ متوسّط يكفي لرؤية كل شيء وفي نفس الوقت لا يؤذي عيون الحضور.

كنا خمسة. جلست ماريّا وإلى يمينها صديقتها المقرّبة التي عرفتني بها بأنها تُدعى: ياسمين.

كانت ياسمين جزائرية الأصل؛ إلا أن ولادتها في فرنسا ثم انتقالها إلى هولندا وعدم زيارتها للجزائر سابقًا حيّرها عندما أرادت ان تُعرّف بنفسها. أنفها مدبب صغير بعكس عينيها اللوزيتين الواسعتين.

لبست ياسمين بنطالاً أزرقًا (جينز) وعليه قميصٌ أبيض طويل يصل إلى ركبتيها. لبست حجابًا أبيضًا عليه ورود زهرية وتحت الحجاب كانت تضع مثبّتًا أبيض اللون أيضًا. لبست حذاءً مسطّحًا من غير كعب. لم تكن طويلة أو قصيرة.

جلس عن يمينها زوجها عمر الذي كان طويلًا وعريض المنكبين وقمحي اللون. لحيته الخفيفة كانت في غاية الترتيب. كان شنبه متّصلاً مع لحيته واضحة الحدود. حرت إن كان قد أعفى لحيته ديانةً أم زينة؛ إلا أن وسامته كانت لافتة. أخبرتني ياسمين لاحقًا أنّه من اليونان وأسلم وهو صغير. عمر يعمل في جامعة أُوتريخت (utrecht) قسم الفلسفة والدراسات الدينية بعد أن تخرّج منها بشهادة دكتوراة في مجال اللاهوت.

توشّح عمر معطفًا جلديًا أسود. لبس قميصًا مزرّرًا ومقلّمًا

بالأزرق والأبيض. كانت أغلب الأزرّة مفتوحة..؛ ما أظهر قميصًا قطنيًا أبيضًا آخر تحته والذي أدخله في بنطاله البنّي.

التفتت ياسمين إليَّ وقالت لماريا:

ـ كيف التقيتِ بمشعل؟

أجابت ماريا وعلى محيّاها ابتسامة نصفها ترقّب ونصفها الآخر شَيْطَنَة:

ـ كان مسكينًا يقف تحت المطر تائهًا فعرضت عليه المساعدة كما يساعد الإنسان قطّة متشرّدة.

أُحبُّ مزاحها.

قلتُ وكأني أبدي ملاحظة عابرة:

ـ أنتِ لا تنفكّين عن الكذب.

ثم التفتُّ إلى رفقائها:

ـ كيف تتحمّلون حمّالة الإفك هذه؟

في هذه اللحظة جاء صوتٌ من خلفي يقول:

ـ لله طرق كثيرة يدفع فيها عبيده إلى شكره، وبمرافقة ماريا، نحمد الله على العافية. لذلك نبقيها معنا.

التفتُّ وإذا برجلٍ متوسّط الطول والبنية يخلع معطفه وعلى مُحيّاه ابتسامة كبيرة تكشف عن أسنانه الكبيرة والشديدة البياض. كان حليق الذقن والشّارب وذا شعرٍ مسبلٍ كث. كان عنوانًا للبشاشة. ابتسامته كشفت عن أسنانه شديدة البياض. شعره الكث أشغله وهو

يعيد ترتيبه بين الحين والآخر. اكتفى بقميصٍ قطني أبيض وبنطالٍ أزرق.

ماوريسيو كاثوليكي؛ ومع أن الكاثوليكيين يجيزون الخمر إلا أنّه كان لا يشربه. كانوا حائرين فيه، فالمكسيكيون معروفون بهذا الشيء. أجاب مرّة: «جرّبته صغيرًا ولم يعجبني». قالت ماريا مرّة: «رجال الدين الكاثوليك يجيزون شرب الخمر لكن صاحبنا لا يشربه». تعرّف عمر على ماوريسيو في نفس قسم الفلسفة والدراسات الدينية.

أجابت ماريا على سخريته قائلةً:

ــ قلنا: إن الموعد الثامنة بتوقيت هولندا، وليس المكسيك.

جلس ماوريسيو على شمالي وقال:

ــ أرأيت، نحن لا نتحمّل كذبها فقط، بل حسّها الفكاهي أيضًا.

هزّ عمر رأسه:

ــ صحيح.

قال ماوريسيو:

ــ أطلبتم بعد؟

أجابه عمر:

ــ لا

فأشار ماوريسيو إلى النّادل مناديًا إياه باللغة عربية:

ــ حبيبي!

ضحك عمر، وقالت ياسمين:

ـ ليتنا لم نعلِّمُك هذه الكلمة.

جاء النادل وأخذ طلباتنا ثم أفل.

سألني عمر:

ـ من أين أنت يا مشعل؟

ـ من السّعوديّة

هنا قال ماوريسيو:

ـ عجيب ما يحدث عندكم في الشرق الأوسط.

سألته:

ـ ما الذي تعنيه؟

ـ أعني الثّورات. أمرٌ دراميٌّ ومُلهِم. أتعتقد أنّه ستكون هناك ثورة في السّعودية؟

أجبته:

ـ لا أظن ذلك. برغم أنّي لستُ متخصّصًا في علم السياسة.

قال ماوريسيو:

ـ لِمَ؟

ـ المقدمات الموجودة في مصر أو سوريا غير موجودة عندنا. نعم هناك مجالات كثيرة يمكن للسعودية أن تعيد النظر فيها. لكن ليس لدرجة الثورة.

قلتُ في نفسي: «بعكس مجتمعها الذي يحتاج إلى ثورة».

التفت ماوريسيو إلى ياسمين وسألها:

ـ ماذا عن الجزائر؟

وجدها ممسكةً هاتفها، فقال ماوريسيو بتضجّر:

ـ ألا تنفكّين عن العبث بهاتفك؟ كل هذا غرام بشركة آبل؟ ليتكِ لم تقرئِي مذكّرات ستيف جوبز (مؤسس الشركة).

أجابته دون أن ترفع رأسها:

ـ كان يؤمن أن لكل شيء مصنوع جوهر وهدف لا بد له من تحقيقه، ولو أن لتلك الأشياء مشاعر فستكون مبنية على تحقيق جوهرها وغايتها من صناعتها.

رفعت رأسها مبتسمة وأكملت:

ـ ولذلك أنا أعتني بمشاعر هاتفي وأستخدمه دائمًا.

قال ماوريسيو بفضول:

ـ هل لك أن تشرحي؟

وهي تجيب، جاء النّادل ومعه المشروبات وبدأ بوضعها أمام كلّ واحدٍ منّا. أجابت ياسمين:

ـ يقول ستيف جوبز: الهدف من الكأس هو احتواء الماء، فلو كان للكأس مشاعر، لفرح إن كان ممتلئًا، ولصار حزينًا لو كان فارغًا. وترجم ستيف جوبز هذا المعتقد في فلمه «حكاية لعبة ـ Toy Story»، حيث صارت للألعاب شخصيات، والهدف من الألعاب ـ كما تعلمون ـ هو أن يلعب الطفل

بها؛ لذلك كان يعتري الألعاب الحزن والقلق من فكرة عدم لعب الطفل بهم.

تدخلتُ في تلك اللحظة وقلت:

ـ وهل تظنّين أن هذا الشيء ينطبق على البشر؟ يعني أنه يحزن إن لم يحقق الغاية من وجوده؟

قال عمر:

ـ في رأيي أن الإنسان في مشكلة غير متوقّفة. لديه طريق واضح لتحقيق السعادة والراحة إلا أنه يصر أن يشق طرقًا جديدة غالبًا ما تنتهي به إلى شيءٍ من الحيرة والضياع وسعادة وهمية مؤقتة؛ فلا هو أخذ الطريق الصحيح، ولا هو وجد الراحة.

سألته:

ـ ماذا تعني؟

ـ أقول إنه يجب أن نعرف حقيقتنا، ونعمل بناءً على ما نعلمه يقينًا. أمّا أن يكون مصدر السعادة أمامنا فنتفلسف ونتكبر ونبحث عن حلول فردية ولا نلتفت إلى الحقيقة فقط؛ لأن فلانًا يريد أن يكون مختلفًا فتلك هي عين مشكلتنا.

ـ وما هذا الطريق الواضح الذي نعرفه يقينًا ولكننا لا نلتفت إليه؟

ـ أنت وأنا وأغلب من على الأرض يعلم أننا مخلوقون.

ـ ثم ماذا؟

ـ ومثل شخصيات الألعاب الموجودة في قصة «حكاية لعبة»، إن لم نحقق الغاية من صناعتنا فلن نجد السعادة.

ـ وعلى أي أساس توصّلت إلى أن هناك غاية من صناعتنا؟

ـ وهل الله يعبث؟

ـ لا أدري. كيف نتحقق من ذلك؟

ـ معرفته ومعرفة صفاته هي التي تقتضي أنّه لا يعبث.

ـ وكيف بإمكاننا معرفة صفات الإله من وجهة نظرك؟

ـ أن تتأمّل فيما صنع. انظر إلى ما أُعْطِيَ للغير لتعلم بعض ما عند المُعطي.

ـ أرى أشجارًا، وبحارًا، وأحجارًا، وصخورًا؛ هذا لا يدل على شيء.

ـ كلامي لا يقتصر على الصفات الفيزيائية.

ـ ماذا إذًا؟

رفع سبابة وخنصر يده اليمنى ومسك الأصبعين بيده اليسرى:

ـ حسنًا سأجيبك لكن دعني أقدّم تعريفًا لمفهوم الصفات. لدينا نوعان من الصّفات، صفات كمال إيجابية وصفات نقص سلبية. فمثلًا:

- (الغنى) صفة كمال و (الفقر) صفة نقص، بمعنى أن: الفقر صفة لشخص مسلوب الغنى؛

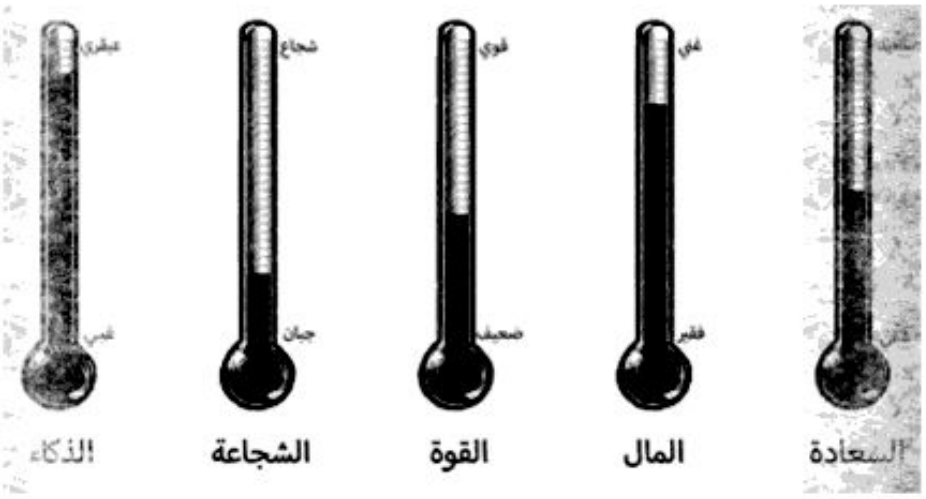

- و(القوّة) صفة كمال و (الضعف) صفة لشخص مسلوب القوّة؛
- و(الشجاعة) صفة كمال، على حين (الجُبن) صفة لشخص مسلوب الشجاعة؛
- و(السّخاء) صفة كمال، و(البخل) صفة لنقص السخاء.

الغني لديه مال ــ مثلًا ــ وقد تتفاوت درجة هذه الصفة الإيجابية، فقد يكون غنيًا غنىً فاحشًا، وقد يكون أقل من ذلك، المهم أنّه يملك صفة إيجابية، وهو أنه موصوف بالغنى بغض النظر عن الدّرجة.

ــ ثم ماذا؟

ــ حسنًا، أنت رأيت في حياتك أشخاصًا أقوياء، أليس كذلك؟

ــ بلى.

ــ فإذا كان ممكنًا أن يمتلك المخلوق صفة من صفات الكمال

كصفة (القوة)، فمن باب أولى أن يكون ذلك الذي خلق المخلوق ــ أيضًا ــ يملك هذه الصفة، بل يتجاوز الصفة الموجودة عند المخلوق الفرد؛ إذ إن خالقها وهبها إلى كثيرين غيره بكل الدرجات.

المبدأُ نفسه ينطبق على القدرة، والعلم، والحكمة، والعناية، وغيرها من جميع الصفات الإيجابية التي نعايشها يوميًا.

ــ هممم.

ــ فالخالق على هذا يمتلك جميع صفات الكمال؛ لأنه هو واهبها أساسًا، فأي صفة كمال في هذه الدّنيا، هي أساسًا من الله.

قالت ماريا:

ــ لماذا يجب عليه أن يمتلكها؟

ــ هل يستطيع أحد أن يُعطي أحدًا شيئًا لا يمتلكه ولا يحوزه؟ فاقد الشيء لا يعطيه. هناك صفات إيجابية في المخلوقات، ومن ثَمّ لا بد من أن معطي كل الصفات الإيجابية الموزعة بتفاوت بين الناس يملك كل الصفات الإيجابية؛ وعلى هذا معطي الكمال هو الكمال بذاته.

قلتُ:

ــ إن كان الأمر كذلك فيجب أن ننسب له الصفات الأخرى أيضًا كالفقر والجوع والضعف.

فأجاب عمر:

ـ لا. أبدًا. الضعف والفقر والجبن، صفات سلبية، فمثلًا: لا يوجد مصطلح علمي اسمه درجة (البرودة)؛ لأنّه لا وجود له، فالحرارة هي صفة القياس الوحيدة، وهي الصفة الإيجابية؛ لذلك يقال إن درجة الحرارة (5) تحت الصفر مثلًا. فالبرودة كالفقر: صفة سلبية. أي أنها حالة انعدام الغنى، فالفقير لم يهبه الله غنىً، ولا يعني ذلك أن ننسب تلك الصفة لله.

قلت:

ـ فهمتك.

ـ من هنا نقول: لله صفة الحكمة أيضًا بالضرورة، وإن كان حكيمًا فلا يمكن أن يعبث. وإن نفيت العبث، توصّلت إلى أن هناك حكمة من خلقنا وعلينا معرفتها لأجل أن نكون سعداء.

ـ طيب وكيف لنا أن نعرف هذه الحكمة؟

ـ يخبرنا بها صاحب الحكمة، الله.

ـ كيف؟

ـ إما مباشرة أو من طريق رُسل، هل لديك طريقة أخرى؟

ـ لا.

ـ انتهينا إذًا. لا بد من وجود رُسل.

قالت ياسمين هنا:

ـ إن كان النّاس سيؤمنون بوجود خالق؛ ويعرفون أن هناك غاية يجب تحقيقها كي يسعدوا، ولكن لا يعرفون ماذا يريد هذا الخالق؟ وكيف يتفاعلون معه؟ فهذه ستولّد مشكلات عظمى.

قلتُ:

ـ مثل ماذا؟

ـ هناك من سيتقرب إليه بالمحبة والتسامح والأخلاق الحسنة. أليس كذلك؟ لكن ما يدريك أنه سيكون القربان والعبادة والشّكر لهذا الإله بالأخلاق الحسنة فقط؟ من الممكن جدًا أن تأتي جماعة تحب ربًا وتتقرب إليه بالقتل والتدمير والأخلاق السيّئة، فلا بد من تبيين ما ينبغي لنا أن نتقرب به إلى ربنا وخالقنا.

ـ حسنًا جاءت فترة من الفترات انقطع فيها الرّسل أليس كذلك؟ يُسمّون أهل الفترة. فكيفك إذًا نقارب بين ما قلتموه للتوّ وبين هذا؟

قال ماوريسيو:

ـ من هم أهل الفترة؟

قلتُ:

ـ هم كل من لم تصلهم الرسالة أو لم يصلهم رسول. مثلاً الأقوام التي عاشت بين إبراهيم والذي يليه أو بين موسى وعيسى، أو بين عيسى ومحمد.

قال عمر:

ـ في تصوّري المسألة ليست كعملية تحديث نظام تشغيل هواتف ذكية. بكبسة زر يتم التحديث.

سكت عمر قليلاً متأمّلاً ثم قال:

ـ سؤالي: لماذا كانت الحاجة لإعادة إرسال الرسل من الأساس؟

قلت:

ـ نظريًا لأن هناك من بدّل أو حرّف الرّسالة في فترة من الفترات أو هناك من قصّر في أداء مهمّته التّربوية فنشأت أجيال في قُرى نائية من غير دين.

ـ فإذًا بعض البشر شاؤوا أن يعبثوا فيبدّلوا فتولّدت الحاجة إلى إرسال رسل.

ـ لكن كيف نحدد متى تأتي الحاجة؟ إما أن يكون هناك تحديث كلّما حدث انحراف بسيط. أو في النقيض الآخر يأتي تحديثًا عندما تنعدم سُبُل التوصّل إلى رسالة الله على البشرية. شخصيًا أقول أنه من الأرجح أن يكون السيناريو الثّاني أكثر قبولاً عندي. لكن هذا لا يغيّر من أن هناك من انعدمت القدرة عندهم لمعرفة الرسالة الحقيقية وبالتّالي يكون خلقهم عبث، أليس كذلك؟

ـ هناك جماعة لم تصلهم الرسالة بسبب تدخّل بشري، أليس كذلك؟

ـ بلى

ـ ومن ثم تستنتج أنت أنّ أهل الفترة لأنهم لم تصلهم الرسالة فإن خلقهم عبث وأن الله لم يعتني بهم؟

ـ نعم.

ـ بهذا المنطق مثلهم مثل طفلٍ لم يبلغ سوى أشهر بسيطة أتى عليه مجرم وقتله. فلم يؤدي غرضه ولم يعتنِ به الله ومات من غير تحقيق غايةٍ ما على حد منطقك وبالتالي يكون خلقه عبثًا. أليس كذلك؟

ـ لم لا؟ وهذه مشكلة أخرى.

ـ إذًا الآن انتقلنا إلى الحديث عن مسألة الخير والشّر وما دور الله في ذلك. وهذه مسألة عميقة جدًا أحب الحديث فيه، لكن ها قد جاء الأكل.

جاء النّادل وبدأ بوضع الأطباق على الطّاولات.

التفت ماوريسيو إلى ماريا وقال:

ـ رجاءً لا تقربي من صحني، لكِ طلب ولي طلب.

قالت ماريّا وهي تضحك:

ـ ما الذي تعنيه؟!

ـ تعلمين جيّدًا ما أعنيه، أم أنّكِ نسيتِ ما حدث قبل أيّام قليلة؟

التفت إليّ ماوريسيو وأشارَ إلى ماريّا وقال:

ـ هذه مثل الأخطبوط، ستجد لها يد في كلّ صحن. لقد اخترتَ مكانًا مميّزًا بعيدًا عنها!

قالت ماريّا:

ـ أنا لا أحب التبذير ورمي الأكل؛ لذلك أساعدكم. آكل لأجلكم. أنت لا تفهم ماوريسيو.

رفع ماوريسيو كفّه باتّجاه ماريّا كأنّه يطلب منها أن تكف، وقال ساخرًا

ـ شكرًا يا ماما تيريزا، لكن دعي طعامي رجاءً.

وددتُ أن أُساير ماوريسيو وماريّا؛ ولكن الحديث الذي كانوا يتحدّثون فيه حول ضرورة وجود رسالة دارَ في رأسي.

بدأ عمر وياسمين وماريسيو بإخراج السّكين والشوكة الملفوفة في المناديل. رمقتني ماريّا ثم قالت لياسمين:

ـ ألم نقل إن الألعاب يجب أن تحقق غايتها؟ وأنها تخشى ألا يعتني فيها الطفل؟

أجابتها ياسمين:

ـ بلى.

ـ حسنًا، ماذا عن العناية؟ هل الله يعتني بنا؟ نعم قلتم أنه يملك كل الصفات الإيجابية؛ ولكن ماذا عن العناية؟

ـ قال ماوريسيو:

ـ بلى هناك عناية واضحة جدًّا. من غير الدخول في فلسفة

عمر، يكفي أن تنظر حولك؛ ولكن ائذن لي أن أنقل لك كلام أشهر ملحد في القرن الواحد والعشرين السير (آنتوني فلو) عندما آمن بوجود الله في آخر عمره. يقول:

تصوّر أنّك نزلت في إحدى رحلاتك بأحد الفنادق، وعندما دخلت غرفتك وجدت أن الصورة المعلقة فوق السرير هي نسخة مطابقة للصورة التي علقتها قبل سنوات فوق فراشك في بيتك، والسجادة التي تغطي أرضية الغرفة أيضًا، بل إنهم وضعوا في المزهرية نوع الزهور نفسه الذي تفضله أنت.

وعلى المنضدة التي في ركن الغرفة، وجدت الطبعة الأخيرة من ديوان الشعر الذي تفضل قراءته من حين لآخر، ووجدت الصحيفة التي اعتدت قراءتها يوميًا، وفي داخل الثلاجة وجدت أنواع المشروبات والشوكولاتة التي تحبها، وزجاجة المياه المعدنية من النّوع نفسه الذي تستخدمه في وطنك.

وعندما أدرت جهاز التلفزيون، وجدت أن الإرسال الداخلي للفندق يعرض باستمرار الأفلام المفضلة عندك، وتذيع الإذاعة الداخلية الموضوعات التي تحبها.

وفي الحمام، وجدت الحوائط قد غطيت بالقيشاني من درجة اللون الفيروزي نفسه الذي تفضله، ووجدت على أحد الأرفف الشامبو والصابون نفسهما اللّذَين اعتدت على استخدامهما.

وكلما جُلت ببصرك وجدت حولك تطابقًا بين ما تحبه واعتدت عليه، وما وفّرته لك إدارة الفندق؛ لا شك في أن

احتمال المصادفة يتناقص تدريجيًا، حتى يثبت في يقينك أن أحدًا قد أَطلَع إدارة الفندق على تفاصيل حياتك ودقائق رغباتك.

قلتُ:

ـ لم أفكّر في المسألة بهذه الطريقة من قبل.

قال عمر مقرًّا:

ـ لو ترى كل شيء في هذه الدنيا لوجدت أن فيها عناية لنا، بل هي معدّة لنا. موقع الكرة الأرضية من الشمس ودورانها وميلانها يعطينا الليل والنهار، والفصول الأربعة عناية. تصوّر لو عاش نصف أهل الأرض في ظلام دائم ونصفها في نهار أبدي، أو تصوّر لو عشنا في صيف دائم أو شتاءٍ باردٍ قارس؛ سيحترق نصف الأرض وسيجمد الآخر.

حتى الماء والهواء والغازات وكل أسباب الحياة موجودة لتهيّء لنا العيش فيها؛ فهذا دليل عناية واضحة وأن الله هيّأ كل شيءٍ لنا. حتى سرعة دوران الأرض مضبوطة والجاذبية مضبوطة؛ وإلا لتطايرنا جميعًا وما استقر شيء عليها.

بل لماذا تنظرون إلى الخارج؟ انظروا إلى أنفسكم. لدينا قلبٌ يعمل بدقة لا تتحمل الخطأ وتدهش كل الأطباء. كل شيء يدل على عناية.

وددتُ أن أشكل عليهم؛ ولكنّي آثرت الصمت. دارت حوارات

قليلة بعد ذلك، وكان الختام عند ماوريسيو. التفت إليّ وقال موجهًا كلامه إلى الجميع:

ـ هل حدّثتُكم عن قصّة مذبحة التشيك؟

التفتت إليّ ياسمين وقالت:

ـ قصصه غريبة ولا أدري من أين يأتي بها.

قال ماوريسيو:

ـ هذه قرأتها قريبًا، نقلها الكاتب الفرنسي (ألبير كامو) في كتابه «الغريب». كانت هناك أسرة تعيش في فقر مدقع، وفوق هذا مات أبوهم. انفصل ابنهم عنهم منذ الصغر ليبحث عن رزقه، وانقطع عن أسرته على أثر تلك الرحلة.

بعد خمسةٍ وعشرين سنة عاد إلى القرية بمعية زوجته وطفله. سمع أن أمه وأخته كانتا تعملان في الفندق الرئيس في المدينة. قرر أن يذهب في المساء إلى الفندق وحيدًا ليفاجئهما.

نظرًا لطول انقطاعه توقع ألا تعرفه أمه أو أخته، وحصل ذلك فعلًا. حجز غرفة كنوع من الدعابة، وتعمّد أن يُريَ أمه وأخته المال الكثير الذي عنده، وكان ينوي أن يكشف عن هويّته صباحًا.

في الليل قتلتهُ أمه وأخته بمطرقة وسرقا ماله ثمّ رموه في النهر.

قالت ياسمين مدهوشة:

ـ أفف!

أكمل ماوريسيو:

ـ لم تنتهِ القصة هنا. في الصباح التالي، جاءت زوجته ومن دون أن تعرف ما حدث، أخبرتهم بمن يكون زوجها، فشنقت الأم نفسها، وانتحرت الأخت برمي نفسها داخل بئرٍ مهجور.

ساد الصمت للحظة، ثمّ قال ماوريسيو وعلى محيّاه ابتسامة:

ـ الآن انتهت القصة.

شكّكتا ماريّا وياسمين في صحّة القصة، وأشارا إلى مواضع قصور فيها. وأخذ الحوار منحىً آخر بعدئذٍ.

بعد أن انتهينا من العشاء، قرروا أن يذهبوا لمشاهدة فيلم. اعتذرتُ عن الحضور؛ ولكنني وافقت أن أرافقهم مشيًا إلى السينما، ثم أكمل طريقي إلى شقّتي.

كنت أفكر بقصة ماوريسيو والنهاية المريعة لذاك الرجل من التشيك، ثم فكّرتُ في حديثهم عن عناية الله بنا، وكأن ماريّا كانت تفكّر فيما أفكّر به، التفتتْ إلى ياسمين وقالت:

ـ أتظنّين أنه يعتني بنا فعلًا؟

ـ من؟

ـ الله.

ـ بالتّأكيد.

ـ ذكرتم أمثلة للعناية؛ ولكن هناك أمثلة لحدوث (ظلم) أو (أذيّة) أو حتّى (تركٌ) من غير اعتناء مثل ما سمّاه مشعل (أهل الفترة)؛ تنافي هذه العناية.

قال عمر:

ـ ظلم وأذيّة مثل ماذا؟

أجابت ماريّا:

ـ مثل السّرقات أو الزلازل أو حتّى في سياق ما ذكرتم أهل الفترة.

أجابها عمر دون تردد:

ـ السرقات والتلاعب بالرسالات نتيجة فعل بشري، أمّا الزلازل وغيرها فلها أسبابها التي نجهلها.

سألت ماريّا مستفسرةً:

ـ لكن الزلازل وغيرها تنافي العناية. فيها شرور. كيف لها أن تكون عناية؟

قال عمر:

ـ وما العناية؟ أيعني ذلك أن يعيش جميع البشر، في حالة من الغنى والصحة والسلامة؟ أتريدين جنّة في الأرض؟

ـ لا. لكن أحتاج حدًّا أدنى من الرّاحة.

ـ ثمّ كيف تعرفين أن هذه الشرور ـ على حد تعبيرك ـ غير هادفة ووُضِعت اعتباطًا؟ كيف تعرفين أنّه لا توجد حكمة بالغة وسبب جيّد يقع خلف هذه الظواهر؟

اتفقتُ نظريًا مع عمر برغم الوحشة التي بداخلي. أجابت ماريّا:

ـ لا أستطيع أن أتصوّر أي سبب إيجابي لها.

هنا قالت ياسمين:

ـ إذن أنتِ تقولين أنّه ما دمتِ أنتِ يا ماريا لا تستطيعين تصوّر سبب إيجابي لذلك؛ فإذن لا يوجد في الواقع سبب إيجابي؟! أي: تصوّرك الخاص أنت يا ماريّا، هو ما يحدد ظواهر وخفايا الأمور الكونية ويُفسّرها كلّها، خيرها وشرها.

ـ لا أقول ذلك.

دخل عمر مرّة أخرى في خط الحوار:

ـ ماذا عن الطّبيب الذي يُعطي المريض دواءً كريه الطّعم كي يشفيه؟ هل نقول إن الطبيب لا يعتني بالمريض؟ أو عن الطبيب الذي يأمر ببتر رجل المريض كي لا ينتشر مرض الغرغرينا فيها، أهو قلّة عناية؟

ـ لا.

ـ بالتّأكيد لا. لا يمكن أن نسحب تصوري أو تصوّرك القاصر لحالات شاذة ووضعها على أنها حقيقة مطلقة ونترك ما نعلمه يقينًا عن غالبية حالات العناية.

أطرقتُ رأسي مُتأمّلًا حديثه. أكمل عمر حديثه لماريّا:

ـ لنأخذ مثالًا واقعيًا: لو دخل مشعل إلى مكتبة، ورأى ألف لوحة للفنان المعروف (دافينشي)، ولنفترض أنه لا يعرف من هو. يكفي أن يشاهد مشعل لوحة أو اثنتين ـ مثلًا ـ من

رسوماته البارعة؛ ليتوصل إلى نتيجة أن (دافينشي) رسام، صحيح؟

ـ نعم.

ـ وبمثل هذا يكفيكِ أن ترين أمثلة العناية والتدبير لتتوصّلين إلى أن الله خلق كونًا دقيقًا كاملًا فيه عناية لنا.

هنا قلتُ محاولًا أن أقف في صف ماريّا:

ـ أعتقد ما تقوله ماريّا أن هناك استثناءات للعناية.

ـ ليست استثناءات، بل استفهامات.

لنعُد إلى المثال: ولنفترض أنّك شاهدت كل رسوماته، وكلّها ـ واحد تلو الآخر ـ تزيد في يقينك أنّه رسّام فذ، ثمّ لنفترض أنّك وجدت في مرسمه لوحة واحدة استثنائية بمعزل عن اللوح كلها، عليها خطوط ورسوم غير مفهومة، وموجودة على وجهٍ غريب وغير مفسّر، هل يمكنك بذلك أن تنفي أنّ (دافينشي) رسّام؟

ـ لا.

ـ بل حتى لو كانت 10٪ أو 20٪ لا يمكننا النفي. فكذلك لا يمكننا بعد أن رأينا آلاف الآيات الكونية، الدالة على إحكام الكون وعناية الله بنا، أن نشك أو ننفي عناية الله وكماله، عندما نرى بعضَ الأمورِ المبهمة.

ثم أيضًا، هل هذه (الاستثناءات) دائمة، منتشرة؟ أو أنها

طوارئ ليس لها ديمومة؟ هل نحن نعيش في حالة دائمة من الزلازل؟ وهل نعيش في حالة دائمة من الفيضانات؟

قالت ماريّا متضجّرة وأدارت عينيها:

ـ هي طوارئ.

ـ إذن، انتهى الأمر. هناك أشياء لا نفقه مآلاتها، وهي في حقيقتها مجرّد أمور لم نفهمها، ولا يمكننا القياس عليها.

تدخّلت ياسمين وقالت:

ـ لا معنى لخلق إنسان كامل عالم للأمور وخفاياها، لا يمرض ولا يضعف، لو كان الإنسان كاملًا، فماذا يتبقّى من الحياة والحكمة منها؟ الإنسان لا يستطيع أن يتعرف إلى الأشياء إلا بسبب ضعفه؛ إننا سنفقد إنسانيتنا لولا هذا الأمر. حبُّ المعرفة يُدخلنا في تحديات ضرورية مهمّة، بل إن المرض والموت والزلازل أشياء ضرورية؛ لأننا نبحث عن العلاج والحلول لنقهرها، وفي هذه الطريق نتعلم ونتبصّر ونكتسب الخبرات، فلو لم يكن هناك أمراض وراثية لما وَجد العلماءُ أنفسَهم، مدفوعين إلى الدخول إلى ساحة علم الجينات.

وصلنا في تلك اللحظة إلى السينما، وأصرّ ماوريسيو على أن أحضر إلا أنني فضّلت أن أختلي بنفسي بعد هذا الحديث. ودّعتهم جميعًا ثم عدتُ مشيًا.

مررت على مقهى في طريقي. طلبتُ شايًا أخضرًا. نظرت إلى

قائمة الأسعار: (الشّاي الأخضر: 2 يورو). قمتُ بحسبة سريعة. (عشرة ريالات تقريبًا). مرتفع لكن لا بأس.

وأنا أرتشف الشّاي فكّرتُ في الحالة النفسية التي صرتُ إليها مليًا، مَن السّببُ يا تُرى لكل هذه الآلام التي أعيشها؟ أنا؟ المجتمع؟ من وضعني في هذا المجتمع؟ لكن...هو يعتني بنا؟

مع كل الإحباطات التي عشتها. ما زال شيءٌ ما داخلي «حيًا». شيءٌ يدفعني إلى الاستمرار في البحث عن الحب. في البحث عن ذاك الإنسان الذي سينتشلني من وحدتي.

جاءتني رسالة نصية من رقم مجهول. بعد أن قرأت المحتوى، استنتجت أنّ الرسالة إمّا من عمر أو ياسمين. لعلّهم أخذوا رقم هاتفي من ماريّا. برغم أنّي قرأت محتوى الرسالة مرارًا عندما كنتُ صغيرًا، ألا أنّي شعرتُ أنّي أقرأ هذا النّص لأوّل مرّة في حياتي:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ

أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: 1 ـ 30].

الفصل الثامن

مزيدٌ من السّير

لقَلْبُ قَدْ أَضْنَاهُ عِشْقُ الجَمَالْ
وَالصَّبْرُ قَدْ ضَاقَ بِمَا لاَ يُقَالْ
يَا رَبْ هَلْ يُرْضِكَ هَذَا الظَّمَأْ
وَالْمَاءُ يَنْسَابُ أَمَامِى زُلاَلْ

***

أَوْلَى بِهَذَا الْقَلْبِ أَنْ يَخْفِقَ
وَفِى ضِرامِ الحُبُ أَنْ يُحْرَقَ
مَا أَضْيَعَ الْيَوْمَ الذِى مَرَّ بِى
مِنْ غَيْرِ أَنْ أَهْوَى وَأَنْ أَعْشَق

رباعيات الخيال

على الأرصفة أنتظر

انتهيت من قراءة الرسالة النّاصية. وأخذت أتأمّل...

من حين إلى آخر أحاول أن أبرر ما يحدث لي. إن لم أجد سيّارة أجرة في وقت متأخّر من الليل، أحاول أن أقنع نفسي أن في تأخّري حكمة خفية. ربّما وأنا أنتظر ستمر أمامي فتاة وتحتاج لمساعدتي وتشاء الظروف أن نجتمع وينتهي الأمر بزواجنا. إلا أنه في كل مرّة سيارة الأجرة تأتي، وتلك الفتاة لا تأتي.

أقوم بهذا بشكل مستمر. أبيع الأوهام على نفسي على أمل أن يهدأ روعي. ومع تأخّر زواجي أقول في نفسي: إن الله يفرّغني لأنشغل في أمرٍ عظيم يغير التاريخ. ولكن ها أنا أعود من وظيفتي

كل ليلة، أتناول وجبة العشاء، ثم إلى سريري. هل هناك شيءٌ عظيم في ذلك؟

ربّما يجب على فتاة أحلامي أن تمر بظروف حتى نلتقي؟ لذلك أنا حبيس الأرصفة حتى تصل. أتأمل كل هذا وأقول لنفسي: أنت طيب. أنت تحسن الظن. سريرتك صافية، ومصابك عظيم.

السبت 15 محرّم 1433هـ ــ 10 ديسمبر 2011

نفس الليلة

قرأت الرسالة النّصيّة مرّة أخرى وأنا أرتشف الشاي الأخضر، تاركًا خلفي ماريّا، عمر، ياسمين، وماوريسيو، تدور في ذهني تناقضات من الهواجس والأسئلة المحيرة، اطمئن أحيانا فيها إلى شكوكي المراودة، وأحيانا أتشكك فيها في يقيني ربما بشكل خافت أو عاصف. لا فرق. استرجعتُ حوارًا دار بين أحمد وخالد قبل سنين. فوجئتُ من نفسي كيف تبدّل موقفي اليوم. كنتُ أميل إلى رأي أحمد برغم الشكوك التي في داخلي، واليوم صرتُ أفهمه أكثر من أي وقتٍ مضى. يسهل على المنظّر أن يتحدّث عن (الحكمة)، لكن المجرّب يحسب حساب كل كلمة يتفوّه بها. لا أدري.

قال أحمد:

ــ ما أريد قوله هو أن الدنيا هذه مليئة بالظلم والأسى والأحزان.

أجابه خالد مبتسمًا:

ــ من كمال الدنيا وجود هذه الأمور فيها؛ لو لم يكن هناك ضعف، لم يكن هناك شيء اسمه قوة. لولا الأحزان لما صار للفرحة معنى. لو لم يكن هناك فقر لما سعينا إلى الغنى. ما يحرّكنا في هذه الدنيا هو الأمل، تُحرّكنا رغبة البحث عن الأفضل. هذه هي جرثومة الضد يا صديقي. الضد الذي

يبرز الحسن كما يقولون، أو كما قال شاعر علي بن جبلة:
والضدّ يُظْهِرُ حُسْنه الضِدُّ.

ـ هل أفهم منك أن الفقر والضعف أمور إيجابية؟

فرد عليه خالد بالحماسة ذاتها:

ـ أتريد أن نولد في قصور كلّنا؟ وكلنا أغنياء؟ لكن إن كنّا كلنا سواسية من سيبني هذه القصور؟ من سيخدمك؟ من سيطبخ لك؟ من سيحلق شعرك؟ إن كنا أغنياء أقوياء كلّنا؛ من سيؤدّي كل هذه الأمور؟

اعتدل أحمد في جلسته، ثم أجاب:

ـ سأشرح لك المسألة بطريقة أخرى: أنت يا مشعل عندما تعزم أن تبني بيتًا، هل تضع فيه عيوبًا ثم تصفه بـ (الكمال)؟

فرد خالد:

ـ و(البيت) هنا تشبهه بالدنيا؟

هز أحمد رأسه إيجابًا وقال:

ـ إيه.

قال خالد:

ـ السؤال الذي يجب طرحه ـ في وجهة نظري ـ هو: ما هدف هذا البناء؟ هل للأكل والنوم والشرب فقط؟ لا أعتقد ذلك. تحيا في الدّنيا، والحياة لها عناصر رئيسة، أهمها: الأمل، والرغبة في أمور مثل: الراحة، والسعادة، والقوة، والغنى، والصحة... هي اللي تحرّكنا، وهي اللي تجعلنا نسعى فيها؛ وإلا لتركنا العمل والسعي.

عندئذٍ تفقد الحياة كل المعاني؛ لأنك تريد سلبها من كل مقوّماتها. تريد إلغاء معاني (السعادة) و(الغنى) و(الصحة) و(الأمل)...؛ لأنه لا وجود لها دون (الحزن) و(المرض) و(الفقر) وغيرها من التي تعطي قيمة للمعاني الحلوة.

أجابه أحمد مباشرةً:

ـ أنت تسطّح المسألة يا خالد. ركّزت على جانب وتركت الأمور الأخرى مثل: السرقة والإرهاب والظلم وتيتيم الأطفال وتقتيل الأرامل. انظر إلى فلسطين، مجازر وقتلى، أين الله عنهم؟

أجابه خالد:

ـ وهل الله هو الذي سرق وفجر؟ الذين يسرقون هم أنا وأنت والبشر، ومن صميم كمال الدنيا أنها أرض خصبة ومفتوحة لنا. نحن نختار إن أردنا أن نسعى إلى الخير أو الشر، الخيار الآخر أن نكون مكبلين ومقيدين فلا تعود الحياة حياة، بل تصير مسرحية.

قال أحمد ـ وكاد صبره أن ينفد ـ:

ـ حسنًا، دع عنك ما بيد النّاس ولنتكلم عن الأمور التي بيد (الإله) الذي تدعيه.

ـ مثل ماذا؟

ـ الفيضانات والأمراض الوراثية وغيرها، التي لا يكون للإنسان سبب فيها.

ـ والله، يا أحمد، هذا يدخل فيه كلامي السابق حول انعدام معنى السعادة والفرحة لولا وجود نقيضها.

ثانيًا: أسباب حصول الفيضانات والأمراض الوراثية لا تزال مجهولة بالنسبة لنا معشر البشر، حتى نبدأ أنا وإياك بالشكوى. ربما يكون السبب هو التلوث الجوي أو الانحباس الحراري اللّذَينِ سبّبناهما نحن.

ـ كان بإمكان الله أن يخلق الدنيا بطريقةٍ ما نحقق بها معاني السعادة من دون أن أضطر أن أصاب بالسرطان. ثم كيف تتجرأ بتقديم هذه التفاسير عديمة المعنى للأطفال الذين ماتوا بسبب الفيضان؟ وكيف تُعطي هذا التفسير لمن وُلد بعيب خَلْقي دون أي سبب؟ فهو لم يتعلّم معنى (السعادة) التي أزعجتنا بها ولا أي شيء آخر. انتهت اللعبة، وهو مات.

ـ لكنك تظن أن (اللعبة) تنتهي بمجرد موتك، هناك الحياة الآخرة، حياتنا هنا لا تقارن بالآخرة.

ـ الآخرة صورة افتراضية رسمها المؤمنون كي يرتاحوا.

ـ والله، فيما يتعلّقُ بي، وجود الآخرة يساعدني على النوم ليلًا مرتاح البال. تريد أن تنكر الخالق، وتريد أن تقول إن الدنيا كلها لا معنى لها، وتعيش حياتك تائهًا، فهذا أمرٌ عائد إليك.

ـ يعني أنت مؤمن بوجود آخرة؛ فقط لأن وجودها مناسب لك، ولأنه مخرج مريح لتناقضات الدنيا؟

ـ بالتأكيد لا، وموضوع إثبات وجود الإله موضوع طويل، تكلّمنا فيه بهدوء؛ ولكن في هذه المسألة أشعر أنّك أكثر تشنّجًا.

قال أحمد:

ـ مع هذا الشر؟ إن كان الإله موجودًا فقد تركنا منذ زمن بعيد. لم يبقَ لنا سوى الخوف.

فرد خالد:

ـ أنت لا تعكس إلا ما في داخلك.

ـ أوليس الله مجرد خيال نصنعه بناءً على ما يدور في داخلنا أساسًا؟

ـ لا تريد أن تفتح قلبك يا أحمد.

ـ وأنت لا تريد أن تفتح عينك. الشر هذا يا خالد ما هدفه؟

قال خالد:

ـ لنفترض أنك في الصحراء، ورأيت أثرًا لخطوات شخصٍ يدور حول صخرة من دون سبب واضح. بحكم أنّك لم تفهم لماذا مشى هذا الشخص بهذه الطريقة، هل يصح ـ إذًا ـ أن أقول إنه لم يمشِ أحد هنا؟

إن لم تكن تعرف غاية بعض الأمور، هل هذا ينفي أن لها مُوجدا؟ لو رأيت جهازًا آليًا لا تفهم الغاية منه، هل يعني ذلك أنّه لا يوجد مهندس أو عالم صنعه؟

لا أذكر كيف تحوّل الموضوع، إلى نقاش حول ناديي الهلال والنصر مرّة أخرى.

كل ما هنالك أنّ هناك من يشعرون بمظلمة الآخرين مثل أحمد. ربّما يخوض تجربة مثلي؟ تجربة ألم وقهر مبرر ممن يدّعون أنهم مؤمنين؟ ربّما..

وبي أملٌ يأتي ويذهب... لكن لن أودعه!

محمود درويش

السبت 13 صفر 1433هـ ــ 7 يناير 2012م

على مرّ الأيّام زادت لقاءتي بماريّا، وكلّما انتهى لقاء أحسست بشوقٍ عجيبٍ لها. الجلوس معها ممتع. حينما أكون معها لا أحسّ بالهم الاجتماعي السّلبي الذي كنت أشعر فيه كلّ يومٍ في وطني. معها أحسّ بالمواطنة الحقة.

وجدتُ اتّصالاً من أمي. عاودت الاتصال بها وأخبرتني أن هناك مرشّحة جديدة.

من الأجدر أن أغير اسمها من «مرشّحة» إلى «كمين». هذا الفخ الذي أقع فيه في كل مرّة. صوتٌ ما في داخلي أخذ يهمس: «ماذا عن ماريا؟». وماذا عنها؟ كُن واقعيًا يا مشعل. قلتُ لأمي:

ـ أمي أرجوك. لا أريد أن ينكسر قلبي مجددًا.

ـ كل شيء بيد الله.

أخبرتني أنّها من أسرة فرنسية في الأصل لكنّهم أسلموا ويعيشون في السعودية. نظرًا لأصولهم وبيئتهم التي عاشوا فيها فإن وضعي «الاستثنائي» لن يكون مُشكلاً على حد قول أمي. أكملت قائلة:

ـ لكنّها صغيرة في السن.

ـ كم تبلغ من العمر؟

ـ عشرون سنة.

ـ إنها صغيرة.

ـ تزوجتُ وأنا ابنة الخمس عشرة. لا عليك من هذا. ثم لا تنسَ، إنها فرنسية! كم سعودي يستطيع أن يفتخر بشيء كهذا! عمومًا دعني أكمل محادثاتي معهم وسأخبرك بالمستجدات.

بحثتُ عن اسمها عبر الإنترنت ووجدت نفسي متسمّرًا أمام صفحتها على الفيسبوك. شعرت أنّي أمام شخص في غاية البراءة والطفولة. فاجأني كم انجذبتُ لهذه الهالة من البراءة المنبثقة من صورتها.

تواصَلَتْ والدتي مع أختها أولاً ثم مع أمها. بعد كل محادثة، تأتي الأخبار أكثر إيجابية. برغم أنّي أدرك أنّه من الغباء وقلة الحكمة أن أجازف بأي شيء من أجل علاقة محتملة مع ماريا، إلا

أن هذا كان كل ما يدور في عقلي. أدركت أني على وشك السّير في طريق يمزّقني. لكن الطريق لم يبدأ بعد. لم يحدث شيء بعد. لا تستعجل.

هناك إحساس بالمراهقة أمرّ به كلّما تخطب لي والدتي. عقلاً لا يمكن تبريره. فعلى المرء أن يتعلّم وأن يكون أكثر ركادةً. إلا أنّي أتذكّر كلمات محمود درويش دائمًا: وبي أملٌ يأتي ويذهب...لكن لن أودعه!

هي هكذا مشاعري، تتأمّل الخير، وتحسن الظن. ومن يكون بني آدم من دون أملٍ يا ترى؟

مع مرور كل يوم صرتُ أفكّر في المسألة بجديّة أكبر. في الأسبوع التّالي اتّصَلَتْ بي ماريا بعد منتصف الليل. قالت بصوت مليء بالنشاط:

ـ نائم؟

ـ لستُ نائمًا.

ـ تجهّز. سأكون عندك بعد ربع ساعة.

ـ مهلاً. لماذا ستأتين؟

ـ سأمرّك بسيّارتي وسنذهب إلى منطقة المقاهي.

ـ هل تعلمين أن الساعة الواحدة فجرًا الآن؟

ـ المقاهي تفتح إلى الثالثة.

فكّرت للحظات وقلت:

ـ أنتِ ستدفعين الحساب.

ـ أوه يا لسوء الحظ، نسيت محفظة نقودي في المنزل!

ـ يا للمسكينة. هيّا عودي وخذيها.

قالت بسخرية وردّت جملتي التي قلتها للتو:

ـ لا سيتأخّر الوقت. «ألا تعلم أن الساعة الآن الواحدة فجرًا!»

سألتها حالما ركبتُ سيّارتها:

ـ ما هي مشكلتك؟

دار الحوار وهي تنظر إلى الأمام دون الالتفات إلي:

ـ لا مشكلة. الأمور كلّها طيّبة.

ـ لماذا تخرجين في هذا الوقت إذًا؟

ـ هل عمرك تسعين سنة؟

ـ لا.

ـ إذًا ما زلت يافعًا. استمتع بوقتك.

التفتُ إلى الشبّاك وقلت بسخرية وبصوتٍ منخفض:

ـ حكيمة...

أجابت بصوتٍ غير منخفض وبحزم:

ـ أعرفُ هذا، وأرجو أن تستفيد من صحبتي.

ـ أجد ثقافتي تتراجع كلّما قضيت وقتي معك.

ـ هذا اسمه «التراجع إلى الخلف، قبل الوثوب إلى الأمام».

مررنا من المقهى الذي بدا وأنه مليء بالرواد رغم تأخّر الوقت. ركنَتْ السيارة على بعد مسافة بعيدة بعض الشيء نظرًا لعدم وجود موقف قريب.

قلتُ:

ـ كيف عملك؟

ـ أحبُّ الأطفال. ومقر عملي مليء بهم. لذلك عملي جيد وأنا جيدة. أحب عملي. عملي رائع. الأطفال متجددون. لا يمكنك أن تتنبّأ بما سيفعلونه. أحيانًا أريد أن أتزوّج فقط لأنجب طفلاً صغيرًا لألاعبه.

ـ أولويّاتكِ واضحة كما يبدو.

ـ الصورة واضحة جدًا بالنّسبة لي. ماذا عنك؟

ـ أتمنى أن تكون لي طفلة صغيرة أيضًا. الأطفال وخصوصًا البنات يقبلونك كما أنت.

ردّت ماريا بسخرية:

ـ جميل. فلنتزوّج إذًا.

ـ إن دفعتِ حساب القهوة سأفكّر في الموضوع.

ـ لا تصعّبها أرجوك.

دخلنا المقهى وكما رأيتُ وكما قالت ماريا، كان المحل مكتظًّا بالناس برغم تأخّر الوقت. وضعت معطفها جانبًا وقالت:

ـ قل لي يا صديقي، من هي أكثر شخصية عصرية تجذبك؟

ـ باتمان (الرجل الوطواط)

قهقهت وقالت:

ـ هذا جوابٌ لم أسمعه من قبل. لماذا؟

ـ لبس قناعًا فقبله الجميع. لبس قناعًا فلم يعد ينظر الناس إلى اسمه وأصله. صاروا ينظرون إلى أفعاله فقط.

ـ ولا تنسَ أنه جذّاب. بطنه مقسّم بشكل متناسق؟

ـ بالطبع، هذا هو الأساس.

ـ ولكن ألا ترى أنّك بهذا القناع تخفي من تكون؟ فلا تعود أنت أنت؟

ـ أبدًا. أنت أنت. لكن القناع يساعد الناس على التعامل معك بطريقة أفضل.

ـ لكنه هروب من الواقع. ألا تظن ذلك؟

ـ هي وسيلة. أنا أريد الوصول من النقطة (أ) إلى (ب). إما أن أمر بالطريق الساحلي الشعبي المليء بالمطبّات، أو آخذ الطريق السريع.

ـ أختلف معك، أنت بهذا لا تصبح جزءا من الحل.

ـ لماذا؟

ـ لأنك لم تقدّم للمجتمع نموذجا واقعيا ليحتذوا به. قدّمت لهم رجلا مقنعا.

ـ قد يكون كذلك. بعض المجتمعات ميؤوس منها وبعضها الآخر غير ذلك.

تحدّثنا في أمورٍ مختلفة بعدها. لم نقضِ وقتًا طويلاً في المقهى ولم نعد إلى السيارة. تركنا أرجلنا تأخذنا حيث ما أرادت في أزقّة الحَيّ.

ونحن نتمشى وصلتني رسالة من أمّي تقول فيها:

«وصلني التالي من أم البنت»

انشرح قلبي. أخيرًا ستأتي موافقتهم المبدئية بعد أن سألوا عنّي. لعلّي سأضطر أن أسافر إلى السعودية لثلاثة أيام كي نقوم بـ«الشوفة الشرعية» ثم أعود.

أيضًا انقبض قلبي. ماذا عن ماريّا؟ لم أصرّح بشيء، ولم تصرّح بشيء. لكن مؤشرات اليوم تشير إليها.

تغلّب الانشراح. دقّات قلبي بدأت تتسارع وأنا أنتظر الرسالة الثانية. بعد لحظات جاءت الرسالة التالية:

«نعتذر منكم يا أم مشعل. والدها رفض ويقول إن فارق السن شاسع وهي صغيرة في السن وينبغي أن تركّز على دراستها. نحن جدًا متأسفون. الله يكتب لها ولكم الصالح».

(...)

أرفع الراية البيضاء وأقولها بملء فمي «أنا أستسلم». خذني إليك الآن يا رب. تعبت. تعبت من محاولة فهم لماذا يحدث لي ما يحدث. تعبت من خلق المبررات والأعذار. تعبت من إيعاز كل شيء لحكمة خفية. دعني وشأني. أرجوك.

تحسس صوت ماريا طريقه إلي وجاء وكأنها تقف في مكان بعيد:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء

سكتت وأكملنا سيرنا قليلاً ثم قالت بحماس:

ـ هل سمعت قصّة القسّيس والفيضان من قبل؟

ـ لا

ـ إنها قصّة جميلة. أتودّ سماعها؟

ـ تفضّلي

قلتها وأنا لا ألقي لماريّا بالاً. بدأت الأصوات التي هدأت بالارتفاع. بدأ الاحتجاج في عقلي يتّسع. أحس بجيوشٍ مجيّشة في قلبي؛ فما عاد قلبي يدق، إنما هي طبول الحرب.

ـ يُحكى أنّ مطرًا شديدًا بدأ يُغرق قرية. كل أهل القرية فزعوا إلا رجلاً واحد. كان هذا الرجل شديد الإيمان ومن أكثر روّاد دور العبادة في القرية.

أخذ الرجل يتبتّل داعيًا بهدوءٍ وسكينة لكي يُذهب الله المطر. عندما وصل الماء إلى منتصف البدن، مرّ عليه شابٌّ يطفو على لوحة خشبية ودعاه لأن يأتي معه لينجو من المطر. نظر الرجل إلى الخشب وفكّر قليلاً ثم قال: «شكرًا لك. أنا أدعو الله لأن ينجيني. وأنا مطمئن أنّه سيستجيب إلى دعائي».

استمر الرّجل بالدّعاء «اللهم نجّني» واستمر المطر بالهطول حتّى وصل الماء إلى ذقن الرجل. مرّ عليه شابٌ آخر بقطع خشب مجمّعة تشبه العوّامة ودعا الرجل لينضم إليه. فنظر الرجل إلى العوّامة للحظات ثم قال: «شكرًا لك. أنا أدعو الله لأن ينجيني. وأنا مطمئن أنّه سيستجيب إلى دعائي» فذهب الشّاب الآخر.

اضطر الرّجل لأن يذهب إلى سطح المنزل كي لا يجرفه السّيل. واستمرّ بالدعاء حتّى جاءه شابٌ آخر بقارب خشبيٍ هزيل وناداه: «أيّها الرّجل! هيّا اركب معي بسرعة». فأجابه الرّجل: «قاربك يبدو ضعيفًا، وأنا أدعو الله لأن ينجيني، ولن يخيّب ظنّي» ذهب الشّاب واستمّر المطر بالهطول.

مات الرّجل غرقًا.

عندما بعث إلى ربّه سأله: «يا رب، دعوتك ولم تستجب» فأجابه الله «استجبت لدعائك ثلاثة مرّات وأرسلت إليك ثلاثة شبّان، إلا أنّك أنت الذي رفضت النجاة»

لم أجبها. لكنّي أخذت أفكّر: ماذا عنّي يا رب؟ هل أرسلت لي منقذا؟ لا أرى سوى زوارق مخروقة وأعواد قش لا أستطيع النجاة بها وأكياس رملٍ ستدفعني إلى الغرق. لا تقارنوني بهذا الرجل أبدًا!

زاد شعوري بالقلق والقهر شيئا فشيئا. قالت ماريا وابتسامتها غادرت محياها:

ـ ما رأيك؟

ـ لا أدري. لماذا تخبريني بهذه القصّة؟

ـ رأيت وجهك شاحبًا بعض الشيء. وهذه القصة تدفعني لأعيد تفسير ما يحدث لي. فارتأيت أن أشاركك القصة.

لم أجبها ولم تلح ماريا على الحديث. مشينا بصمت للحظات.

التفتُّ إلى ماريا وكان يعتري وجهها شيء من التّعب. قلتُ لها:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ لا يبدو ذلك؟

ـ لا أعلم، لكنّي أحس بألم مفاجئ في بطني.

زاد ألمها شيئًا فشيئًا وزاد وجهها شحوبًا. أخبرتها أنّي سأقلّها إلى شقّتها. مع مرور الدقائق تحوّلت ماريا من الثرثرة المعتادة إلى الصمت التام. عندما ركبنا السيّارة قلت:

ـ هل نذهب إلى المستشفى؟

ـ لا، هي آلام في المعدة تصيبني بعض الأحيان.

ـ الأكل؟

ـ ربّما. لا تقلق. لنذهب إلى شقتي.

لم أشأ أن ألح عليها. وصلنا إلى العمارة التي تسكنها. أسنَدَت نفسها علي حتى وصلنا إلى المصعد. غليت ماءً وخلطتُ معه كمّون. ذهبتُ إلى غرفة نومها حيث لحفتها في فراشها. شربتْ قليلًا من الكمّون السّاخن ثم أشارت إلى أنها اكتفت. استندت بكفّي وعادت إلى الاستلقاء. لم تقل شيئًا لكنّ أصابع يدها تحرّكت بسكينة بين أصابعي.

ـ أأنتِ بحالٍ أفضل؟

صارعت نفسها لترسم ابتسامة على شفتيها وقالت:

ـ شكرًا...باتمان

ابتسمتُ ابتسامة عريضة وتركتُ أصابعي المتشابكة بين أصابعها لتجيبها.

الفصل التّاسع

من يُمسك بيدي؟

«إن المصلحة، في أمرِ ابتداءِ الدنيا إلى انقضاء مدتها، امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة ولو كان الشر صرفًا هلك أهل الحق، أو كان الخير محضًا سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة. ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالِم تثبُّت وتوقُّف وتعلُّم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التدبير، ودفع المضرة، ولا اجتلاب المنفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر، وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحقٌّ يجد عزّ الحق، ومبطل يجد ذل الباطل، وموفق يجد بَرْد التوفيق، وشاكٌّ يجد نقص الحيرة وكرْب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعبها الأطماع... فسبحان من جعل منافعها نعمة، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع... وجعل في الجميع تمامَ المصلحة، وباجتماعها تمامَ النعمة»

الجاحظ

الجمعة 4 ربيع الأول 1433هـ ــ 27 يناير 2012م

أي نعم المجتمع هو المذنب. لكن أليس الله قادرًا على كل شيء؟ لماذا لا يجيب؟ ربّما.. ربّما لم أتواصل معه بالطريقة الصحيحة. ربّما الإسلام غير صحيح، فكنتُ أدعوه وأنا مسلم وبالتالي لا يستجيب دعائي؟

ممكن.

تواصلت مع عمر وطلبتُ لقاءه. كان يهمّني ــ جدًّا ــ أن أواجه هذا الضياع الذي أعيشه. أخبرته عن سبب رغبتي في لقائه، وهلّل لقدومي.

كيف قادني البحث عن زوجة إلى البحث عن الله؟ وكيف قدّر لي أن أقابل عمر وياسمين.. وقبل هذا من أي جنّة نزلت ماريّا علي؟

حيّاني عمر وياسمين وتبادلنا أطراف الحديث كما يصير عند بداية كلّ لقاء. أخبرته أنني اقتنعت بضرورة إرسال الرسل بناءً على حديث ذلك المساء في المطعم، وكيف أن شرح ستيف جوبز من خلال فلم «حكاية لعبة» كان شرحًا جميلًا. اقتنعت بكمال الله وعنايته أيضًا؛ مما يفرض ضرورة وجود رسل لإخبارنا عن سبب وجودنا.

لكنّي أريد أن أعرف ــ الآن ــ، كيف أعرف أي الرسالات هي رسالة الله لنا؟

استأذن عمر ليعود ببعض الشاي، على حين تكلّمنا بحديثٍ عابر أنا وياسمين. عاد عمر وسكبت ياسمين لنا الشاي. بعد أن تحدّثنا عن بعض المقدّماتِ استطرد عمر قائلًا:

ــ إن كان الله ــ لا شك ــ أرسل رسلًا ليبيّنوا المقصد من الخلق.

ــ نعم.

ــ وإن كان الرّسل بلّغوا فعلًا.

ــ جميل.

ــ وإن كان هناك عدد ممن ادّعى أنّه رسول.

ــ حسنًا.

ـ فالنّتيجة هي أنّه لا بد ـ في أقل تقدير ـ من أن بعض مدّعي الرّسالة فعلًا رُسُل، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ إذن، يجب علينا أن نبحث في هذه الأديان أو الرّسالات الموجودة حاليًا لمعرفة الحقيقة، ومن الشروط المهمة لتأكيد أن الرّسول يبلّغ عن الله، هو أن تتوافق رسالته مع ما نعرفه عن الله ضرورة.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا بد ـ مثلًا ـ من أن يدعو إلى إله واحد؛ فلا يستوي عقلًا وجود أكثر من إله؛ لأن وجود الأول ينفي الثّاني.

ـ كيف؟

ـ ماذا إن أراد الإله الأوّل أمرًا، ولم يرد الإله الثّاني هذا الشّيء؟

ـ ...

ـ لا ينفع؛ سنواجه تعارضًا بين إرادتين مطلقتين، وهذا بحدّ ذاته يُحدث تناقضًا عقليًا؛ لذلك يقول الله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: 91]..

ـ ما المانع إن رضِيا أن يتقاسما «الكعكة»؟

ـ أي يتنازلان ويرضخان لبعضهما البعض؟

أجبته:

ـ صحيح، لا ينفع، مجرّد التنازل والرضوخ يناقض كمال الخالق ضرورة.

قالت ياسمين:

ـ هذا يذكّرني بقصص آلهة الإغريق، بأنواعها، وأعدادها، ومعاركها الأسطورية وكيف كانت تقاتل وتخالف بعضها البعض.

أومأتُ إيجابًا على تعليق ياسمين ثم قلت:

ـ حسنًا؛ ولكن غيري قد يجد مخرجا، هل لك أن تنفي وجود أكثر من إله بطريقة أخرى؟ يعني ماذا لو كنتُ مسيحيًّا وأؤمن بالتثليث، وأن كلَّ جزء يكون مكمّلا للآخر، ومثل هذه الحجة ستنطبق على أي فكر يدعو إلى تعدد الآلهة.

قال عمر بصوتٍ معتدل ولكن بحماسة أيضًا:

ـ كيف تكون الثلاثة واحدًا؟ إن تعدد الذوات يدل على تغايرها، وإن تغايرها يدل على تعدّدها، فكيف تكون الثلاثة واحدًا؟

ـ من الممكن أن أقول: إنها واحدة كأصبع يدي، فإنها مقسّمة إلى ثلاثة عُقل، والثلاثة تكوّن واحدًا.

ـ قل لي: أهذا الأصبع مركّب أم بسيط؟

ـ ماذا تعني؟

ـ مركّب، يعني مكوّن من أقسام أبسط، والبسيط هو: ما لا يمكن تبسيطه أو قسمته إلى أقسام أبسط.

ـ الأصبع مركّب من ثلاثة عُقَل.

ـ فإن كان الإله كالأصبع والأصبع مركّب؛ فإن الإله ـ إذًا ـ مركّب. السؤال هو: من الذي ركّب الإله قبل أن يكون مركّبًا، وهو خالق كل شيء؟

ـ يمكن أن يقال أنه: هو الذي ركّب نفسه.

ـ وكيف كان حاله قبل التركيب؟

ـ لم يكن مركّبًا.

ـ إذا رُكِّب الإله بعد عدم التركيب صار مخلوقًا، والمخلوق يقتضي أن يكون سبق وجوده عدم، فمن الذي أخرج الإله من العدم إلى الوجود؟ صفة التركيب هذه تتعارض مع ما نعرفه عن الله.

قلتُ:

ـ أجئت بهذا الرد من نفسك؟

ـ سمعته مرّة من عالم يتحدث عبر قناة تلفزيونية وأعجبني. إن كنتَ تريد أن تستزيد في موقفك من المسيحية مثلاً، لنتباحث أنا وإياك في الأديان الأخرى ولنضع الأساسات. بإمكاننا حينها أن نحدد موقفًا أكثر وضوحًا.

أكمل عمر حديثه:

ـ فإذن، الرسل بمجملهم يدعون إلى عبادة إله. وموقف هذه الرسالات إما أن تجدها متّسقة مع ما نعرفه عن الله ضرورة. أو غير متّسقة.

علّقت ياسمين:

ـ يعني: نبحث عن دين يدعو إلى إلهٍ واحدٍ له صفات الكمال، ويكون متوافقًا مع ما نعلمه من العقل بالضّرورة عن الله.

قلتُ:

ـ اليهود يؤمنون بإله واحد وكذلك الهندوس، أليس كذلك؟

قال عمر:

ـ نعم، كثير من المذاهب اليهودية يقولون بإله واحد ولكن تجد في كتابهم المقدّس قدح في صفات الله سبحانه، فيصوّرونه على أنه يندم ويتحسر مثلاً، وهذه الصفات كالندم لا تكون إلا فيمن لديه قلة معرفة واطلاع وجهل بالغيب. وقلة المعرفة وغيرها لا يتصف بها ذات لها صفات الكمال. أيضًا هناك نصوص تحوي غيرها من الصفات التي تقول إنه يتعب ويحتاج إلى راحة أو إنه يأمر بالسرقة أو إنه يتشكى... وغيرها. والمسيحيون يؤمنون بالتّوراة على أنّه العهد القديم برغم ما يحتويه من قدحٍ في الله.

أما الهندوس فيقولون بإله واحد رئيس براهما لكن يقولون بفيشنو وكريشنا. وبغض النظر هم ينسبون للإله صفات تنافي ما علمناه ضرورة. فهو يتجسد بصفات كثيرة منها: أنه نزل إلى الأرض على هيئة إنسي مقاتل وتزوج امرأة اسمها «سيتا»، وهذه واحدة من أعداد كثيرة من الصفات والهيئات التي ينسبونها لله.

في الأخير لن تجد دينًا يدعو إلى الله متّسقًا مع ما هو معلوم بالضرورة إلا الإسلام. فهو يدعو إلى إله واحدٍ كامل الصفات حكيم خبير. ويقول أن عيسى وموسى عليهما السلام أنبياء الله ومريم ابنة عمران وليّة من أولياء الله الصالحين. وتجد اتّساقًا بين الرسالات الثلاث في مواضع كثيرة.

سألتُ بعدئذٍ:

ـ حتى لو افترضنا أن الدين الإسلامي هو الخيار السليم الوحيد المتبقي، فهناك عقبة إضافية.

قالت ياسمين:

ـ وما هي؟

أجبتها قائلًا:

ـ كون أن الإسلام هو الخيار الوحيد المتبقي؛ فهذا لا يعني أنه هو الطريق الصحيح.

فردت مباشرةً:

ـ وأين الطريق الصحيح والدين الحق؛ ما دام أنه ضروري الوجود؟

ـ لا أدري، ربّما في جزيرة ما، أو ربما اندثر.

قال عمر:

ـ ولكن أنت هنا ترفض الإسلام قبل أن نتحدّث عن آياته برغم ما يفرضه

تفكّرت ياسمين ثم قالت:

ـ أعتقد أنه يمكن لأي شخص أن يدّعي أنه رسول؛ ولكن كيف يُفَرِّقُ الباحث بين الرُّسُل الصادقين والكاذبين؟

تفاعلت مع سؤالها وقلت:

ـ ربما نبحث في أوامر هذا التشريع ونواهيه على وجهٍ تفصيلي، ثم نحكّم عقولنا فيها.

هنا قال عمر:

ـ لكنك بذلك لا تعبد الله، بل تعبد إلهًا يُوافق عقلك وهواك وتصوّرك أنت، وهذا لا يستوي، أضف إلى ذلك أننا لا يمكن أن ننظر إلى الفروع لنحكم بها على الأصول.

طلبتُ منه أن يتوسّع في هذه النقطة. فقال:

ـ مثلًا: يقولُ كثيرون: لماذا حرّم الإسلام لحمَ الخنزير؟ أو، لماذا أمر بالاغتسال من الجنابة، ولم يأمر به عند التبوّل؛ مع أن الثانية نجسة والأولى لا؟ أو، لماذا يطلب من الرجل كذا ومن المرأة كذا؟ أو أن هناك تصوّرات معينة لظلم المرأة.

ـ وغيرها من الاستفسارات التي قد تقبلها عقولُ بعضهم، وقد ترفضها عقولُ آخرين.

كل هذه الأسئلة، لا ينبغي لها أن تُوضع على خط المواجهة لإقناع أحدٍ ما بالإسلام أو أي دين، ولا ينبغي لها أن تجعل المرء يترك الإسلام أو يدخل فيه.

هذه الفروع مبنية على أصول. يجب أن تنظر إلى الأصول.

متى ما ثبت عندك أن الأصل من عند الله، وثبت أنّه نابعٌ من إلهٍ مقدّسٍ ومنزّهٍ عن الخطأ؛ عندئذٍ لا يمكنك أن تحاكم ما جاء به القرآن إلى عقلك، ثم تنفيه بناءً على شكوكٍ بقضايا فرعية غير واضحة؛ لأنّك بذلك تحاكم الله إلى عقلك، فلنحاول معًا إثبات الأصل.

ـ تفضّل.

ـ الأصل هنا القرآن، وهناك إثباتات كثيرة أنه كتابٌ من الله؛ ولكن أرى أنّ هناك ثلاث قواعد رئيسة لإثبات أنه من الله.

ـ وما هي؟

ـ الأمر الأول، أنّه متوافق ـ تمامًا ـ مع ما نعرفه ضرورةً عن الله، فيخبرنا أنه الواحد الأحد والأول والآخر وجميع الصفات التي يجب أن يتّصف بها الخالق.

ـ الأمر الثاني؟

ـ ثانيًا، أنه متّسق داخليًا وخارجيًا.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنه من المستحيل أن تجد تناقضًا بين آيات الله الموجودة في دفتي القرآن، فالآيات متّسقة اتّساقًا تامًا.

ـ هل هذا هو الاتّساق الداخلي؟

ـ نعم.

ـ والاتساق الخارجي؟

- أي عدم وجود أية تناقض بين ما في القرآن وما نعرفه في أرض الواقع من حقائق قطعية، فلا تجد آية تخالف حقائق نعرفها عقلًا بالضرورة.

- وكيف يكون الاتساق سواء داخليًا أم خارجيًا يعني أنه من الله؟

- يقول الله في القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. القرآن فيه قرابة ستمائة صفحة ويتحدث عن شتى أمور الحياة. كتاب كهذا لو كان عملًا بشريًا لوجدنا فيه أخطاء وتناقضات؛ ولكن القرآن متّسق اتساقا تاما قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة دون أن يهتز. لن تجد فيه خطأً لغويًا أو تاريخيًا أو متعلقًا بالطبيعة والكون. لن تجد فيه معلومات متناقضة أو متضاربة. من أكثر الأمور التي هزّتني في أول مرّة قرأتُ فيها القرآن هي الكيفية التي افتُتِحَ بها القرآن. يقول في افتتاح القرآن: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 1 ـ 2]. يقول لا شك في هذا الكتاب. وهذا التحدي لا يزال صامدًا إلى يومنا هذا مع وجود الاكتشافات والتطورات العلمية.

سكتَ عمر قليلًا ليعطيني فسحة للتفكير في المسألة وبادلته بصمت كي يكمل. قال عمر:

- القاعدة الثالثة هي الشواهد البلاغية والتاريخية المؤيّدة للقرآن.

قلتُ:

ـ مثل؟

ـ لو تتبّعنا التاريخ لوجدنا أن لكل عصر قضيّةً ما، انشغل النّاس بها، وجاء التأييد الإلهي للرسل، حسبما انصرف الناس له، وانشغلوا به؛ ففي زمن موسى أيّده بما يدحض السّحر، من انفلاق البحر، والعصا وغيره؛ لأن السّحر قد انتشر في ذاك الزّمن؛ أما في عهد عيسى فقد تقدّم الطّب، فأيّد الله نبيّه بإبراء الأكْمه، وشفاء المرضى بإذنه تعالى.

ـ لكن لا يمكنك أن تستدل بغيبيات مذكورة في كتابك (القرآن) للاستدلال على صحّة هذا الكتاب.

ـ صحيح، فلنأخذ المعلوم ضرورة إذن: في زمن محمد ﷺ برع الناس في فنون اللغة، وتباهوا بفصاحتهم وبلاغتهم وأشعارهم، فأنزل الله تعالى معجزة القرآن، وتحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله، وقد انبهر العرب ببلاغة القرآن الكريم، وكان القرآن هو المعجزة التي أيّد اللهُ بها نبيّنا محمدًا، عليه الصلاة والسلام.

قلتُ:

ـ لكن الإنسان العادي في يومنا هذا لا يستطيع تقييمَ بلاغةِ القرآن، والقول بإعجازه من عدمه، فما بالك بالناس الذين لا يتكلّمون العربية؟ فكيف تقرّر أن هذا هو دين الحق بإعجازٍ لا أستطيع إدراكه؟

قالت ياسمين:

ـ الناس بطبيعتهم عقولهم متفاوتة من الصعب أن يتساووا في القدرة على تقييم أمرٍ ما؛ لذلك يعتمد النّاس على المختصين. مثلاً هل كل البشر أطباء ويفهمون الطب؟

ـ لا.

ـ الناس على هذا يعتمدون على المختصين لتقييم أمور لا يفقهونها هم. يأتي الطبيب ويشخّص ويقول إن المريض فيه كذا وكذا وكذا، ولا يمكن للمريض أن يتحقق من هذا، ومع ذلك يأخذ ما قيل على أنه حقيقة لأن خبرة الطبيب واختصاصه تكفيان.

ـ ثم ماذا؟

ـ الأمر نفسه ينطبق هنا. لسنا كلنا متخصصين في اللغة؛ لكن المتخصصين نقلوا تشخيصهم فنأخذ بها.

أضاف عمر:

ـ وحتى لو تجاوزنا المتخصصين في عصرنا ونظرنا إلى العرب أجمع في عهد الرسول حسب المتواتر تاريخيًا؛ فإنهم أقروا بعدم قدرتهم على مجابهة لغة القرآن حتى سمّاه المعارضون سحرًا. وهذا تأييد آخر أيضًا.

قلتُ وأنا أمسك بإبهامي:

ـ حسنًا هذا التأييد اللغوي. ماذا عن التأييد التاريخي كما أسميته؟

أجاب عمر:

ـ الإسلام دين لكل البشر، ولكل العصور؛ فقد كان ولا يزال للقرآن حجّةٌ من طريق الإخبار بالغيوب، بعضها غيوبٌ زمنية، وأخرى علمية فُسِّرَت في عصور مختلفة، ومنها ما اكتشفناه ومنها ما لا نعلمه حتى الآن.

ـ أعطني مثالًا على إخبار أمرٍ غيبي تاريخي؟

ـ بعضها حدث في عهد الرّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبعضها حدث بعده.

ـ بخصوص الأمور الغيبية التي حدثت في عهد النّبي ـ عليه الصلاة والسّلام ـ فهي كثيرة، قد لا تُبهرك؛ ولكنّها ـ كلّها ـ تأتي في تأييد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: 2].

مثلًا: كل من أخبر عنه القرآن أنّه سيموت كافرًا غير مؤمن بالإسلام مات على ذلك مثل: (أبي لهب) فقد نزل في أوّل الإسلام قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1] ثم قيل فيه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 3]. فهنا يخبرنا القرآن أنه سيموت كافرًا. مع العلم أن هذا كان في أول الإسلام وأن هذا الشخص هو عم الرسول. كان الاحتمال وارد جدًا أن يؤمن؛ لكن الإسلام أخبر عن هذا الغيب.

ـ أعتقد أنّك تحاول نسج حقيقة بخيوط رفيعة جدًا.

ـ لماذا لم تنزل سورةٌ في أي أحد آخر ممن كانوا أعداءً

للإسلام ثم أسلموا فيما بعد؟ وفي هذا الأمر نفسه حجّة قويّة على صدق القرآن.

ـ كيف؟

ـ أولم يكن أبو لهب من أحرص النّاس على نقض الإسلام؟

ـ بلى.

ـ كان بإمكانه بكل بساطة أن يدّعي أنّه آمن، وبذلك يُسقِط القرآن، والدّين الإسلامي؛ لكنّه لم يفعل، فأخبر القرآن بموته على الكفر، وكان ذلك حقًّا، وقبل أن تقول: إنها حالة فردية وقد تكون مصادفة، أقول لك: إنّها حدثت مع أبي جهل، والأخنس بن شريق الثّقفي، والنّضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة و...

ـ ولكن...

ـ اسمح لي أن أذكر أمثلة أخرى.

ـ تفضل.

ـ من الحوادث الأخرى: حادثة الإسراء والمعراج؛ فوصف النبي ﷺ المسجد الأقصى ووصف قافلة قريشٍ التي كانت في الشام؛ مع أنه دخل فراشه مساءًا وخرج منه صباحًا؛ مع العلم أن المسافة بين مكة والقدس في تلك الأزمان كانت مسيرة شهرين، وقد ورد ذكر الأوصاف في الأحاديث، وورد أصل الإسراء في القرآن، فهذه كلّها، براهين على أن القرآن آية مؤيّدة من الله، وأنّ القرآن هو كلامه وقوله تعالى.

ـ وغيرها؟

ـ وقوله تعالى أيضًا: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم :2 ـ 3].

هذه آية تنبّأت بهزيمة الرّوم في أرضٍ شديدة الانخفاض، وقد ثبت حدوث هذا في أرض فلسطين بعد نزول الآية ببضع سنين. وفلسطين ـ التي فيها البحر الميّت ـ تعد من أكثر المناطق على الكرة الأرضية انخفاضًا.

ـ ماذا عن أمثلة بعد ممات الرسول؟

ـ هناك الكثير مثل أن القسطنطينية ستفتح وبلاد فارس وتحقق هذا بعد مدة طويلة من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام. ولا تنسَ أن هذه الوعود كانت في اوّل الإسلام. تخيّل لو أن رجلاً في جزيرة صغيرة في عصرنا وعد أن أمريكا أو روسيا ستدخل تحت حكمه؟ سيقال أن هذا ضربٌ من الجنون.

ولا تنسَ أننا نتحدث عن شواهد تاريخية، وإن شئت الدخول في العلمية منها فذاك يحتاج إلى مختصٍّ ولستُ منهم ولكن يمكننا البحث فيه إن أردت.

بعد ذلك أوردت ياسمين الآتي:

ـ أريد أن أسأل سؤالًا مجازيًا يا مشعل: لنفترض أنّك ـ فعلًا ـ لستَ مؤمنًا بالإسلام، هناك سؤال يدور في بالي: من أين أتى محمد بالقرآن؟

- قد يكون جاء به من عند نفسه، أو تعلّمه من غيره.

- جميل، إذن، هو صنعٌ بشري، وبسبب هذا الصنع البشري (القرآن) استطاع محمد أن ينشر فكره في المشرق والمغرب بهذا الاتساع والشهرة، وأن يحكمهم، فلماذا إذن على مدار الألف وأربعمائة سنة الماضية، لم يأت أحدٌ بكتابٍ مثله؟ أليست المسألة بهذا القدر من السهولة؟ أليست يسيرة؟ ألم يتآمر عليه صناديد العرب وفصحاؤها؟ ألم يطالبهم الرسول ﷺ كما هو مذكور في القرآن، أن يأتوا بسورة مثله؟ ألم يكونوا في أشد الحاجة إلى ذلك؟ ألم يبذلوا أعزّ وأعظم من الكلام والشّعر حتى يحاربوه؟ ألم يبذلوا الأنفس، والأموال، والأولاد، لردّه عما يدعو إليه؟ لمَ لم يرتاحوا ويأتوا بقرآنٍ مثله، أو مشابه له، ليُعجِزوه ويُبطِلوا دينه؟

ألم يقل الله في كتابه أبلغَ وأصرحَ عبارةٍ تحدٌّ لهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] ومع هذا لم يكن لهم أي رد واقعي.

سكتُّ أتأمّلُ كلامها.

حاولتُ بكل جهد أن أجد خطأً منطقيًا في كلامهم وما استطعت. في طريقي إلى منزلي قلّبتُ تلك الأفكار ووجدتُ نفسي مضطرًا لأن أعترف: هناك إله، وأرسل رسلاً، ومحمد ﷺ رسولٌ من رسله.

ماذا بقي الآن؟

كيف تمكَّنَتْ نفسي منّي وكيف ذهبَتْ بي إلى هذا الحد؟ هل يُعقَل أن المسألة نفسية بحتة؟ أنا أتحمّل الجزء الأكبر من المسؤولية؛ لكن لا يُمكِن لمجتمعي أن يكون بريئًا تمامًا.

ابتعدتُ عن سجّادة صلاتي، وعن طرقِ باب الله قبل سنين، ومنذ تلك الفترة، وأزمتي في حالة تقلّب مستمر، وراحتي تقل... افتقدتُ شيئًا ما بداخلي، وتسارعت وتيرةُ قلقي وضجري وجزعي.

لا أدري لماذا تذكّرت ماريّا في تلك اللحظة؛ لقد أوصتني أن أُخبِرها بأيّ مستجدات في رحلة بحثي، ماذا يا تُرى سيكون ردّة فعلها، لو أخبرتها عمّا دار بيني وبين عمر؟

وتساءلت: لماذا أفكّر فيها لكل هذا الحد؟ ما هذه المصادفة الجميلة التي جمعتني بها؟

هل كانت مصادفة؟

الإثنين 6 ربيع الأوّل 1433هـ ــ 29 يناير 2012م

أتكون قد سهرت الليل بعد خروجي من عندها تلك الليلة مثلي؟ أم أعياها المرض فنامت؟

قابلتُ ماريّا عند محل القهوة المجاور لمكان عملي. ما إن رأتني حتّى أقبلت نحوي قائلةً:

ــ صديقي!

ــ أهلاً. كيف حالك؟

ــ سعيدة لرؤيتك يا باتمان!

ــ أوه، وأنا أيضًا.

ــ أتعلم سبب سعادتي؟

ــ لا، لماذا أنتِ سعيدة؟

ــ كي تخبرني عن مقابلتك مع «معلمك» الجديد عمر!

ــ أوه.

أخبرتها بما جرى، وكانت تستمع إلي بإنصاتٍ شديد، كنتُ أُشيح وجهي بين الفينة والأخرى؛ حتّى لا أغرقَ في عينيها المتسمّرتين تجاهي، وحقيقةً كانت نظراتها تقطع حبل أفكاري من حينٍ لآخر، فتُعيدُني إلى أصل كلامي.

كان إعجابي بها يتزايد دائمًا ولا يتوقف، كانت تنصت وتحاور، وتحلّل وتفسّر، وكأنّها هي التي تعيش ما أعيشه، ولا شك في أن اهتمامها أسعدني وجبر من كسري، فكم رغبتُ في عينٍ ساهرة، وأذنٍ مصغية، ومشاعرَ دانية.

مع كل إيماءة من رأسها، أحسست أنّها تقترب من روحي أكثر.

ختمتُ كلامي بقولي:

ـ وهذا ما حدث.

ـ مثير. كلام (حبيبك) مثير للاهتمام إن صح.

ـ هو صحيح.

ـ وهل أنت تدعونني بطريقة غير مباشرة الآن؟

ـ حتّى أدعوكِ يجب أن أكون في الجهة الأخرى.

ـ أتعني أنّك لم تقتنع؟

ـ بلى، اقتنعت.

ـ إذن، أنت في الطّرف الآخر.

ـ اقتنعت؛ لكنّي لم أعبر الجسر بعد.

ـ ماذا تنتظر؟

ـ أحبُّ التّريّث.

ـ التّريّث شيءٌ جيّد متى ما كان في محلّه.

ـ ألا تعتقدين أن موقفي هذا يستحق التّريّث.

ـ لا أدري، كل ما أعرفه أن التّريّث في غير محلّه حماقة!

ـ صحيح. لكن ألا ترين التناقض في كلامك؟

ـ كيف؟

ـ تقولين لي ألا أتريّث، وفي نفس الوقت تقولين أنّكِ غير مقتنعة؟ كيف تشجعيني على فعل أمرٍ أنتِ لستِ مقتنعةً فيه؟

ـ أولاً أنا لم أقل أني مقتنعة ولم أقل أنّي غير مقتنعة. أنا مستمعة. ثانيًا أنا مؤمنة أن النّاس مختلفة؛ وأن ما قد تجده مريحًا وسببًا لسعادتك قد لا يراه غيرك كذلك.

ـ لكن ألا ترين أن المنطق بطبعه يفرض نفسه؟

ـ يعتمد على رغبة المتلقّي. ولنأخذك أنت كمثال. أنت تقول أنه في رأيك أن كلام عمر منطقي، لكنّك لم تتقبله بعد. ألا أتظن أن هناك تناقضًا في موقفك؟

ـ صراحةً، نعم. أشعر بشيء من التناقض. هل هناك مشكلة في ذلك؟

ـ ما رأيك؟

ـ كلنا نعيش قدرًا من التناقض. لو لم يكن هناك تناقض بين أفعالنا والمثاليات التي ندعو إليها فهذا يعني ضمنًا أننا لا نخطئ أبدًا، وهذا مستحيل.

ـ أو يعني أيضًا أننا لا نملك قِيَمًا سامية، فنفعلُ كل ما نهواه، وهوانا يساوي قِيَمِنا، وعلى هذا لا نتناقض أيضًا.

ـ صحيح.

ـ مسيو.

ـ نعم؟

ـ أتعلم أنّ حديثك عن قصتك مع عمر أخّرني عن عملي؟

ـ أنا لم أطلب أن أرويها، أنتِ التي ألححتِ بالطلب علي.

ـ لا تتعلّق بالتفاصيل يا مشعل. على كلّ حال، نهارك سعيد يا صديقي.

حملت حقيبتها وكتابها ومشتْ، راقبتُها وهي تبتعد. التفتَتْ إليّ وابتسمت ابتسامة غريبة لا أعلم طبيعتها؛ ولكنّها لم تكن ابتسامتها المعتادة، ثمّ أَفَلَتْ.

السبت 17 ربيع الآخر 1433هـ ــ 10 مارس 2012م

مرّت الأيّام وتوطّدت صداقتي مع هذه المجموعة المتناقضة. منطلقاتهم الفكرية مختلفة تمامًا إلا أن الحياة تجمعهم بكل تناغم.

دُعيت إلى رحلة في أحد أرياف هولندا معهم. كان عمر يقود السيارة بينما جلست ياسمين عن يمينه. مرّوا عليّ أولاً ثم ماوريسيو وماريّا. جلستُ وماريا في الصف الثاني بينما جلس ماوريسيو وحيدًا في الخلف. كان من المفترض أن نتحرّك في الصباح الباكر لولا أن ماريا كان لديها موعدًا في ذاك الوقت. لم نكن نعرف سبب الموعد.

عندما ركبت ماريا السيارة، لفتت انتباهي لون عينيها كما هو كل مرّة. حاولت مرّة أخرى أن أجد وصفًا لهما لكنّي فشلت.

كلّما رأيتها بدا وكأني أكتشف لونًا جديدًا. يتنقل بين السواد واللوز والأخضر الغامق. شيءٌ ما في عينيها يأسر كلّ من ينظر إليها.

كنتُ أودّ أن أبوح لها بأنّي أحب النظر إلى عينيها، إلى محيّاها، إليها. ربّما سأقول ذلك لها. قريبًا.

تبعد منطقة (De Hoge Veluwe) قرابة الساعة والنصف عن روتردام. كان الطريق كله أخضرًا بدرجات متفاوتة. رأيتُ أشجارًا شديدة الخضرة وبعضها قريبة إلى اللون الأحمر وأخرى إلى البنّي.

وفوق هذه الخُضرة سماءٌ أزرقٌ شجّره هو الآخر الغيوم الناصعة. تمازج هذا الفسيفساء من الألوان؛ ليشكّل صورة في غاية الجمال.

وصلنا إلى الموقع الظهر وبدأنا بإعداد العدّة لبقية اليوم. كانت الأشجار الشاهقة تحيط بنا من كل مكان؛ تسكنها عصافير متباينة الأنواع. عرفت ذلك للتنوع الواسع لأصوات زقزقة العصافير التي كانت تقع على مسمعي.

كنّا قد دخلنا في فصل الربيع. أحسست بالرطوبة في المكان لكن بقايا الشتاء والنسائم العليلة أبقت المكان باردًا. امتزجت الأرض تحتنا بأوراق الأشجار وأعواد النبات. أصابت الرطوبة التربة أيضًا والتي مال لونها إلى السواد.

اختار ماوريسيو المكان لوجود بحبوحة بين الأشجار تكفي لإقامة عدّتنا. كانت الخطة أن نطبخ وجبة الغداء ومن ثمّ نذهب سيرًا على الأقدام إلى أحد المرتفعات القريبة بينما يبقى شخصان لإعداد وجبة العَشاء.

وضعنا عدّتنا بين الأشجار قرب نهرٍ جارٍ وتولّى الطبخ كل من ماريا وياسمين. كان الأكل لذيذًا جدًا. وبدأت ماريا تتحدّى وتقول أن وجبة العشاء لن تتفوّق على الغداء. اتّفقنا على أن نبقى أنا وماوريسيو لنطبخ بينما يذهب الباقون إلى المرتفع.

بعد أن ودّعنا ماريا وعمر وياسمين بدأت بتقطيع البصل وبدأ هو بإعداد التّوابل. قال لي ماوريسيو وهو منهمكٌ في العمل:

ـــ مشعل

ـ نعم؟

ـ ما هي قصّتك مع ماريا؟

ـ لا توجد أية قصّة.

ـ حسنًا ما هي قصّتك مع الله؟

ـ ومن قال أنّ لدي قصّة؟

ـ حقيقةً لا أعلم.. لكنّي تذكّرت بعض تعليقاتك عندما التقيت بك أوّل مرّة. ومن بعدها انتبهت إلى أنّك تتطرق إلى نفس النقاط من الحين إلى الآخر، فحسبتُ أنّه موضوع من الممكن أن نتحدث فيه.

ـ يا صديقي تحدّثت في هذا الموضوع كثيرًا. خصوصًا في الأسابيع الماضية.

ـ هل أخبرتك عن قصّة الرجل الذي يعمل في المنجم؟

ـ لم أسمع هذه القصة من قبل.

ـ هذه قصّة قرأتها في أحد الكتب وهي قصّة مشهورة عندنا في المكسيك.

ـ تفضّل

ـ كان هناك رجل يعمل في منجم قرب قرية صغيرة. كان الرجل ذا قوّة بدنية عالية. ونظرًا لذلك، كان يتولّى هو حفر الأنفاق. وشيئًا فشيئًا انتشر صيته في أنحاء القرية. بعد سنين أصبح أحد الأعلام فيها نظرًا لنجاحه في اختراق الصخور والجبال.

ـ زاد دخله، وتزوّج امرأة جميلة وأنجبت له طفلتين في غاية الجمال. كان كلّ شيء يسير بإيجابية في حياته.

ـ في يومٍ من الأيّام، جمع أحد التجار أهل القرية ليكشف لهم عن مفاجأة. كان صاحبنا قد تصدّر الحضور. كشف التّاجر عن آلة حفرٍ جديدة ستعين أهل القرية على استخراج المزيد من الأحجار الثمينة من تحت الأرض.

ـ أطلق الحضور صيحات فرح وتشجيع إلا شخص واحد.

ـ صاحبنا..

ـ هزّ ماوريسيو رأسه وهو يقطّع الطماطم وأكمل:

ـ بالضبط. بمجرّد أن شرح التاجر الهدف من جلب هذه الآلة تبادر إلى ذهن الرجل كيف سيخسر دخله وصيته واحترام النّاس له إذ أن هذه الآلة ستحل محلّه. قام الرجل مباشرةً بالتشكيك في قدرات الآلة وأنّها لا يمكن لها أن تقوم بما يقوم به. حاول التاجر أن يشرح أن هذه الآلة ستريحه ليتفرّغ هو لدور ريادي إلا أن الرجل أبى أن يقبل ذلك.

ـ جميل... ماذا فعل الرجل بعدها؟

ـ بعد بضعة أيام دعا أهل القرية لاجتماع طارئ. أعلن أنّه سيتحدّى الآلة ليثبت للناس أيّهم أكثر قدرة على الحفر. ودعا الناس إلى التجمع في نهار السبت وسيبدأ هو والآلة بالحفر في أرض طبيعتها يابسة وصخرية. وقال أنه سيستطيع أن يحفر لعمق لا تستطيع الآلة أن تصل إليه.

جاء نهار السبت. تجمّع الناس. وبدأ هو والآلة بالحفر. بعد مرور بضع ساعات كان الرجل والآلة قد استطاعوا أن يصلوا إلى عمق متشابه. لكن هذا الأمر لم يهز ثقة الرجل بنفسه. استمر بالحفر لساعات وساعات، طالبه الناس بأن يرتاح إلا أنّه أبى. استمر في الحفر حتى الليل. تركه الناس في تلك الليلة على أن يعودوا في صباح اليوم التالي. حتى من كان يحرّك الآلة قرر التوقف نظرًا لأن الآلة لم تعد قادرة على الحفر أكثر.

في منتصف الليل صارت حفرة الرجل أعمق من حفرة الآلة. وبرغم ذلك استمر بالحفر حتى انكسر مِعوله.

في تلك اللحظات كان الرجل قد انتصر، إلا أنه لم يكن أحد هناك ليشهد الانتصار. مع انهماك الرجل في الحفر، لم يلحظ المستوى العميق جدا الذي وصل إليه. حاول أن يخرج لكن كانت الحفرة عميقة لدرجة أنه لم يستطع الخروج. أخذ يستنجد بالناس لكن لم يكن هناك مجيب. ربط الحبل الذي كان معه بصخرة وأخذ يرمي الحبل إلى الأعلى لعلّها تتعلّق بشيء ويستطيع بعدها أن يتسلّق ويخرج. ما لم يلاحظه الرجل أيضًا، أنّه نظرًا إلى العمق الذي وصل إليه بدأت بعض أجزاء الحفرة تتصدّع.

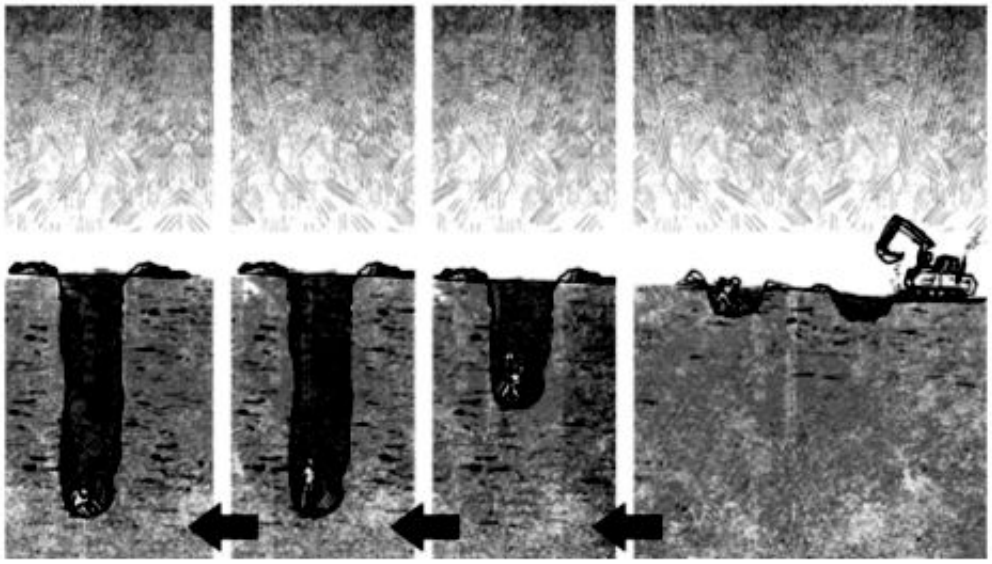

مع محاولاته الكثيرة لرمي الحبل تصدّعت الحفرة أكثر فأكثر حتى أخذت الصخور تتساقط ودفنت الرجل حيًا.

ـ يا ساترا! هذه قصة حزينة يا ماوريسيو.

ـ أتدري ما هو المحزن فعلاً؟

ـ ماذا؟

ـ عندما عاد النّاس وجدو أن حفرة الرجل لم تكن أعمق من حفرة الآلة.

ـ حدث هذا لأن جزءًا كبيرًا من الحفرة قد دفن نتيجة التصدع وتساقط الصخور؟

ـ نعم، لكن الناس لم تعرف ذلك، وظنّت أن الرجل ترك مكانه وهرب لأنه لم يستطع كسب التحدّي.

ـ قل لي. ما هدف هذه القصّة الحزينة؟

ـ صاحبنا قتل نفسه لكيلا يخسر مصدر دخله؛ فخسر حياته وكل شيء وقد كان يملك الكثير.

ـ وما دخل هذا بي؟

ـ أحيانًا ننسى الصورة الكبيرة.

ـ وما هي الصورة الكبيرة؟ ذكرت ماريا وذكرت إيماني بالله. أيهما تعني؟

ـ لا أعلم، لكن بما أنّك ذكرت ماريا ها هو عمر وياسمين يحملانها. انظر.

لم تمضِ مدّة طويلة على ذهابهم. لكن منظر ماريا وهي تتّكئ على ياسمين جعلني أستنتج أنّها أصيبت في قدمها.

مع قربهم استطعت أن ألحظ ابتسامة السخرية التي علت وجه عمر. قال وهو يقترب:

ـ سقطت الفدائية ماريا وأصابت قدمها.

برغم أنّي قلقت بعض الشيء، إلا أنّي لم أتمالك نفسي وشاركت ماوريسيو بالضحك. قال ماوريسيو:

ـ ما الحل؟

أجابته ياسمين:

ـ الحل نتركها عندكم ونعود أنا وزوجي الحبيب.

قال ماوريسيو:

ـ سأخرّب عليكم هذه الرحلة الرومانسية. بما أن ماريا هنا، سأذهب أنا معكم.

قالت ماريا وهي تتأمّل:

ـ هذا لن يعفيك من التّحدي. ستخسره.

ـ إن بقيت أشارك مشعل الطبخ بوجودك سنخسر حتمًا. لأنّك لن تكفّي عن النقد والثرثرة. فأحببت أن أترك هذا الشرف لمشعل.

ذهب الثلاثة وأكملت إعداد الأكل. وكما تنبّأ ماوريسيو، لم تتوقف ماريا أبدا عن أذيّتي. كلّما فعلت شيئًا علّقت: (هذه ليست أفضل طريقة)، أو (ستخرّب الطبخة) أو (لا لا يا إلهي ما الذي تفعله)

وضعت الطعام على النار ولم يبقَ سوى أن ننتظر عودة الثلاثة. قالت ماريا:

ـ هل رأيت النّهر؟

ـ لم أفرغ إلا للتو.

ـ دعنا إذًا نذهب هناك هو على بعد خطوات بسيطة.

أعنتها على المشي حتى وصلنا إلى هناك. فرشتُ سجّادة جلبتها معي وجلسنا قرب النهر. لا شيء سوى الهدوء كان يحفّنا.

قالت ماريا من غير مقدّمات:

ـ مشعل. قل لي.

ـ ماذا؟

ـ ما هي قصّتك؟

ـ يبدو أن «قصّتي» محل اهتمام الكثيرين هذه الأيام.

ـ ماذا تعني؟

ـ سألني ماوريسيو نفس السؤال.

ـ حسنًا قل لي ما هي قصّتك؟

ـ ماذا تعنين بقصّتي؟

ـ تحمل شيئًا ثقيلاً لا أعرف ما هو. ما السبب وراء هذا؟ ما سبب هذه الأسئلة عن الله والدين؟

ـ لا أعلم السبب بالضبط.

ـ جرّب أن تفكّر بصوتٍ عالي.

ـ أنتِ تسألين عن دفتر حسابات عمري. وهذا الدفتر غير مرتّب وطويل جدًا.

ـ أنا صبورة وطويلة نفس.

أخذت أروي لها «قصّتي». أقلّب صفحاتي من دون ترتيب. صفحات مليئة بخيبات الأمل. ذكرت لها كل شيء.

ذكرتُ لها موقفي الذي اتخذتهُ قبل بضعة أيّام. قرّرت أن أكون مسلمًا لأن كل العلامات تشير إلى الإسلام.

كانت تستمع لكلامي وتنصت بتمعّن. كانت تحدّق بي وأنا أشرح الأحداث التي مررت بها. غاصت عيناها في عينيّ وكأنها تريد أن تتعرّف على المشاعر القابعة خلف تلك الكلمات.

انتهيت من حديثي وساد الصمت. تحرّكت نحوي ببطئ وضمّتني من دون أن تقول شيئًا.

لم أبادلها أية حركة. لم أحرّك يديَّ. لا أعلم لماذا. هل كان انغماسًا منّي في ألمي؟ أم هي المفاجأة التي شلّتني؟ عادت إلى موضعها.

كان تعليقها على كل ما سمعت هو أن تقترب مني وتضمّني. كان تعليقًا بليغًا.

مرّت مدة ليست بسيطة على صمتنا. كانت النجوم تملأ السماء نورًا في تلك الليلة. أخذ تفكيرها يعلو إلى السماء سربًا. وأخذ الصمت يملأ المكان برودةً. لا أعلم إلى أي الكواكب وصلت. سألتها:

ـ إلى أين ذهبتِ؟

أجابت بهدوء وكأنها تحدّث نفسها:

ـ ما أصغر حجمنا، وما أكبر همومنا. كيف لنا أن نكون بهذا الصغر، وكيف لهمومنا أن يكون لها كل هذا الثقل؟

ـ ...

ـ هل هذا الكون كله لنا يا تُرى؟ هل تُخلق المحيطات من أجل أن تحمل قارورة كتبت فيها رسالة؟ هل كل شيء في هذا الكون صُيِّر لنا؟ أم أن هذا تفكير أناني؟

خرجت كلماتها بهدوء. وجدتُ نفسي أقول:

ـ ولكن هل من العدل أن تكون قيمتي في هذه الحياة مشتقة من حجمي؟ أرفض قبول ذلك.

ـ صحيح.

ـ أريد أن يكون لدعواتي المرسلة إلى السماء قيمة. أريد أن أشارك امرأة حياتي وحبي وقيمي ومبادئي.

ـ الأخيرة مهمّة..أن تشاركك في الدين، صحيح؟

ـ نعم.

اعتدلت في جلستها، أخذت نفسًا ثم التفتت إليّ قائلة بنفس الهدوء:

ـ إذًا.. تبحث عن امرأة تشاركك إيمانك وقِيمك ومبادئك.

ـ نعم.

ـ وهل ستجدها في ظنّك؟

ـ لا أعلم.

سكتُّ قليلاً ثم بادرتها:

ـ من الصّعب أن أجد ماريا مسلمة. لكن.. إن وجدت امرأةً تتمتّع بنصف ما تتمتّعين به فهذا كافٍ لي.

فوجئت بنطقي ذلك، وإن كان كلانا يعلم ذلك جيدًا. كان إسلامي حاجزًا لي ولم يكن حاجزًا لها. قالت:

ـ هل ستقبل بي كما أنا ـ وأنا لا أشاركك إيمانيّاتك ـ؟ لا أظن.

كنت سأقول لها أنّي منذ أن عرفتك، وللحلوى في فمي مذاقٌ آخر. أتذوّقها وأستلذ بها. الشمس باتت أكثر إشراقًا، تؤمّلني بغدٍ مشرق بسبب وجودك في حياتي. صار هناك شيء أتطلع إليه..أنتِ.

ببساطة، حياتي بوجودك أصبحت تعني أكثر مما كانت تعنيه قبل معرفتك. هل تصدّقين كل هذا؟

بدلاً من ذلك، قلتُ لها:

ـ أنتِ على حق.

ساد الصمت للحظات، وبدأتُ أحاور نفسي.

لماذا لم تقل شيئًا؟

لماذا تضحّي بها من أجل إيمانيّات لم تتبنّاها سوى قبل أيام؟ ألا تسعدك؟ ألم تشرق حياتك بمعرفتها؟

وإن لم تكن تؤمن بدينك؟ ثمّ ماذا؟ ألا يسمح دينك بأن تتزوّج من غير المسلمات؟ هيّا. قل شيئًا.

نعم كل هذا صحيح. لكن، وبرغم أنها إيمانيات جديدة، إلا أنها قناعات. أنا ضعيف، وأبحث عمّن تعينني. أبحث عمّن أكوّن أسرة معها وفق رؤية مشتركة. أبحث عمّن تعينني على إنشاء أطفالنا وفق هذه الرؤية. المسألة ليست هكذا بسيطة.

كنتُ أبحث عن امرأة بعيدًا عن الدين. الآن بات إحساس السكينة والوصول إلى صفاء روحي أكثر أهمية. هل كان البحث عن الزوجة مجرّد تشكّل غير دقيق للمعضلة الحقيقية؟ صورة شكّلتها في مخيّلتي لتغطي المعضلة الحقيقية؟ معضلة عدم طمأنينتي...

جاء صوت ماريّا خاليًا من أي حياة:

ــ متى ستسافر؟

ــ قريبًا..

لم نقل شيئًا. نقل الصمت كلماتنا التي لم نتفوّه بها...

عاد الثلاثة وعلت الأصوات. لم تتحدّث ماريا كثيرًا بقيّة الليلة حتى أوصلناها منزلها تلك الليلة.

الفصل العاشر

لا شيء سوى صدى صوتي

«اعرف مواضع الشّك وحالاته الموجبة له؛ لتعرف بها مواضع اليقين، والحالات الموجبة له، وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلّمًا، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه، فلم يكن يقين قط، حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحدٌ عن اعتقاد إلى اعتقادِ غيرِه حتى يكون بينهما حال شك».

الجاحظ

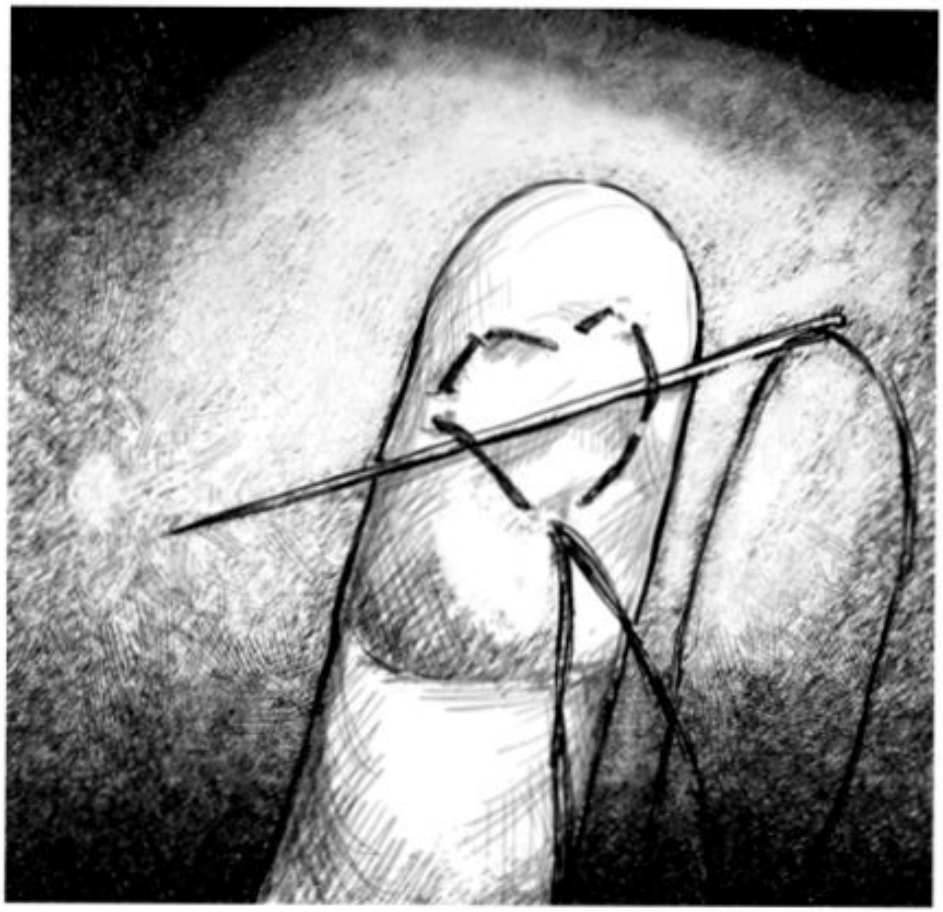

الجمعة 23 ربيع الآخر 1433هـ ــ 17 مارس 2012م

لم أستطع أن أنام. ما حدث مع ماريّا أرّقني. وما ينغّصني هو أنني اعتقدت أن بمحض قناعتي بالإسلام سأشعر براحة. لكنّي لم أشعر بشيء. ما زلت أشعر بوحشة. ومازالت مشكلتي قائمة. ربّما هذا نصيبي؟ ربّما هذا ما قدّره الله لي؟ ربّما البأس هو قدري. لكن إن كان هذا قدري، فلماذا أدعو ربّي؟ ما الفائدة؟ أنا مطالب بالرضى من جهة، ومطالب بالدعاء من جهة. ولا أنا الذي راضٍ عن ظروفي، ولا هو الدعاء يغيّر شيءٍ عندي.

دعوت عمر وياسمين إلى المطعم الجزائري نفسه. كنتُ أريد

أسمع منهم وجهة نظرهم. لماذا لم يستجب الله دعائي وأنا محتاج إليه. أحسب أني وجدت الله، أظن أنني اهتديت إلى دينه. لكن هذا ما كنتُ عليه ابتداءً ومع هذا وقعتُ فيما وقعتُ فيه.

قلتُ:

ـ ... أنا أدعو الله وأبتهل وأتبتّل ولا يستجيب، ثمّ أربّت على نفسي، وأقول: إنّ هناك خيرًا لي لا أعلمه؛ لكن...

سكتُ لأحاول صياغة سؤالي، فقالت ياسمين متطلعة وباهتمام:

ـ لكن ماذا؟

قلتُ:

ـ إن كان كل شيء معلومًا عند الله سلفًا، فما فائدة الدعاء؟ ولماذا يُطالبنا الله بالدّعاء؟ فأنا أدعو ليغيّر الله حالي إلى الأحسن؛ ولكن إن كانَ مكتوبًا ما سيجري وما سيحصل، فما الفائدة من الدعاء؟

قال عمر:

ـ الإشكالية في رأيي هو في ضبط مفهوم القضاء. وهو مفهوم اختلط على كثيرٍ تعريفه. يظنون معناه أن الله جعل الإنسان مسيّرًا ومجبرًا غير مخيّر؛ وهذا فهمٌ خاطئ.

قلت:

ـ لا شك في أننا لسنا مجبرين، وهذا ما يحيّرني. أسمع كثيرًا هذا قضاء الله فاقبله. لكن، إن كان الشقاء مكتوبًا علي، ما فائدة دعائي؟

قال:

ـ سأتحدّث بلغة سهلةٍ بعيدًا عن أقوال العلماء الذين قد يحمّلون كلامي هنا مترتّبات كثيرة لا أعنيها ولا أقصدها.

ـ لا مشكلة.

ـ القضاء: هو علم الله عز وجل بالأشياء كلها، على ما ستكون عليه وما سيحدث لنا في المستقبل. والقدر: هو ظهور تلك الأشياء بالفعل طبقًا وموافقًا لعلمه الأزلي المتعلق بها.

الله عز وجل منح الإنسان استطاعة ليختار بها الأشياء، وعندما يمارس الإنسان هذه الاستطاعة عندئذ يخلق الله أفعالَه وتصرفاته تلك مطابقة لاختياراته التي اتّجه الإنسان إليها، ولا يمكن أن تخالف علم الله الأزلي لأن الله بكل شيء عليم.

ـ لكن ألا يعني ذلك أن علم الله سيجبرنا لفعل ما علمه هو؟

ـ أبدًا! بكلمة وجيزة: القضاء علم الله بكل ما يقع في الكون وكل ما يصدر عن الإنسان. والعلم صفة تكشف عن الواقع وليست صفة مؤثّرة فيه! فمن أين يأتي الإجبار والقهر من صفة العلم هذه؟

لاحظتْ ياسمين أني استصعبتُ شرح عمر، وقبل أن تجيبني، جاء النّادل لأخذ الطلبات. استأذن عمر أن يطلب للجميع. فوافقناه. طلب عمر الكسكس باللحمة وإيدام. لم أذقه من قبل. خشيت ألا أستسيغه لكن آثرتُ السكوت. بعد أن انتهى عمر من الطلب، التفتت ياسمين إلي وقالت:

ـ لنفترض أنّك رأيت سيّارتين تصطدمان. ولنفترض أنّك كنت تملك آلة زمن وعدت للماضي ووقفت على المشهد نفسه قبل أن يحدث. لو رأيت السيّارتين تقتربان وسألتك: هل تعلم أنّهما ستصطدمان؟ ماذا ستجيب؟

ـ سأقول نعم، ستصطدمان.

ـ هل يكون علمك بما سيحدث هو سبب لحدوث الاصطدام؟

ـ لا.

ـ إذن، العلم تابع للواقع المعلوم وليس العكس. والله علم ما سنختار وكتبه.

فكّرتُ في شرحها، ثم قلت:

ـ إن هذا يعني أن الله علم أن فلانًا من الناس، إنّ خلقه وعاش عمرًا طويلًا سيرتكب الموبقات، والأشرار مثلًا، فلماذا حينئذٍ يخلق الله هذا الإنسان، وهو يعلم بالشرور التي سيرتكبها؟

فأجاب عمر فورًا:

ـ قبل كل شيء: كَونَ أن الله خلقنا أحرارًا فتلك نعمةٌ بحدِّ ذاتها، ونعمة الاختيار والإرادة من أعظم النعم، فلو أساء أحدهم استخدامَ هذه الحريّة، فهي لا تلغي قيمة النعمة، الملامة يجب أن تكون على من أساء.

ومن يستمع إلى استشكالك، سيظن أن المفترض أن تكون هذه الدنيا عبارة عن حلم وردي خالٍ من الآلام، ولا بد من

تدخل إلهي مستمر لنقض ومنع اختيارات الإنسان التي قد تفضي إلى الألم.

هذا التصور الخاطئ، وهو: وجوب خلو الدنيا من أي آلام. لو كان حقًّا؛ لانتفت الحكمة من الخلق ولبطل معنى التكليف الذي عليه يحاسب الإنسان، ولانعدم معنى الأجر والعقاب، ولما تحقق قول الله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20].

هل وضحت الفكرة؟

ـ نعم.

ـ إذن تلخيصًا للفكرة: نحن مقيّدون بالزّمن وهو مفهوم نسبي. أمّا علم الله سبحانه وتعالى فلا يحدّه الزمن، وهو مطّلع وعليمٌ بكل شيء. نحن المحدودون بالـ (قبل) والـ (آن) والـ (بعد) أما الله سبحانه فلا.

إن استنتجنا أنه (بناءً على أن الله يعلم ما سيحدث، أننا من ثمّ مجبرون) فقد أخطأنا؛ فالزمن كلّه، مستقبله وحاضره وماضيه ماثلٌ أمام الله وخاضع لعلمه.

قلتُ:

ـ لكن ماذا عن إرادة الله التي ذكرها في القرآن، هل نستطيع مخالفتها؟ ماذا إذا تعارضت إرادة الإنسان مع إرادة الله؟

قالت ياسمين:

ـ لم أفهم سؤالك؟

ـ حسنًا: لا يمكن لشيء أن يقع في الكون أو يصدر من الإنسان يخالف إرادة الله. صحيح؟

ـ نعم.

ـ هذا يعني أن المعاصي والطاعات الصادرة من الإنسان إنما صدرت بإرادة من الله، وهذا يستوجب غياب إرادة الإنسان؛ لأنها إن كانت تخالف إرادة الله، لما سمح بها.

في الجهة الأخرى، لو قلنا إن الإنسان مخيّر بالتّوجه إلى الطاعة أو المعصية؛ فإن ذلك يعني أنه يملك أن يختار خلاف ما قد أراده الله، وإذًا قد تتغلب في الحالة الثانية إرادة الإنسان على إرادة الله، ويقع الذي أراده الإنسان.

غير أن هذا الاحتمال الثاني باطل لأنه مخالف بوجهٍ حاد لقول الله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، ومخالف للمنطق الذي يقتضي ألا يتغلب على الإرادة الإلهية شيء.

من ثمّ يبقى الخيار الأوّل، ويكون الإنسانُ مقهورًا ومجبورًا على فعل الخير أو المعصية.

التفتت ياسمين إلى عمر الذي بادر بالإجابة قائلًا:

ـ المشكلة ناتجة عن عدم تفريقك بين المشيئة من جهة، والرضا والمحبّة من جهة.

ـ كيف؟

ـ حسنًا: مشيئة الله: هي إرادة عامة مصلحية لكل الموجودات

وهي مرتبطة بحكمة وغير مرتبطة برضى الله أو سخطه. أراد الله أن نتمتع بالاختيار والقدرة على اتخاذ القرار؛ لذلك مهما كانت قراراتنا فهي لن تخالف مشيئة الله وإرادته، وهذه الإرادة نافذة. وتسمّى عند العلماء إرادة كونية.

أما رضاه: فتختص بما يحبه سبحانه ويرضاه، ولا يُشترط حدوثها في أرض الواقع. فالله يحب ألا يعصيه أحد؛ ولكن هناك من يعصيه. وتسمّى عند العلماء إرادة دينية.

قلتُ له بعدئذٍ:

- وماذا عن قول الله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]، ألا تعارِضُ هذه الآية ما تقول؟

- المعنى هنا يُشبه المذكور آنفًا، ومعنى الآية كالآتي: ما كنتم ـ أيّها البشر ـ لتفعلوا خيرًا أو شرًا أو تتمتعوا بالمشيئة في اختيار ما ترغبون، لو لم أشأ أن أمتّعكم بهذه المشيئة.

وانظر إلى الآية التي تسبقها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: 27 ـ 29]، فالإنسان يتمتع بمشيئة، ثم يخبرنا الله أن هذه نعمة من الله. وهناك آيات أخرى على هذا النحو كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: 54 ـ 56] وغيرها.

قلتُ:

ـ ماذا عن الآيات التي تتحدّث عن أن الله سيختم على قلوب الناس، أو سيهدي الناس. أليس هذا تدخّلًا؟ مثلًا قول الله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 146].

فقالت ياسمين:

ـ هنا يبيّن الله أنه سيعاقب المتكبّرين عقابًا عاجلًا عادلًا في الحياة الدنيا، بأن يمنع عنهم ملكة الاختيار، نتيجة استكبارهم، وعنادهم، وجحودهم مع علمهم أنه الحق.

الآيات على هذا المنوال كثيرة، فقد يُصِر الإنسانُ في تعريضِ نفسِه للمقت الإلهي، نتيجة مداومته على المعاصي وموجبات المقت تكبّرًا؛ ومع أنه يعلم أنّها معاصٍ، فيأمر الله بعدله أن تخمدَ في نفسه دوافعُ التوجُّهِ نحوَ الخير والهداية كعقوبة عاجلة عادلة له في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16].

قلتُ:

ـ حسنًا دعني ألخّص ما تقول: يعني الإسلام يخبرنا أن الله سبحانه خلق مَلَكة الاختيار، فلا بد من أن يكون لنا قرارٌ ومسؤولية.

هز عمر رأسه إيجابًا وقالت ياسمين:

ـ نعم.

أكملتُ:

ـ ثم إن إرادة الله اقتضت أن يكون لنا الاختيار؛ وبذلك لا يتعارض التخيير مع إرادة الله.

ـ صحيح.

ـ أما من يستكبر ويعاند ويكابر، فهو بذلك يتعرّض لعقاب الله معجّلًا في الدنيا، فيزيدهم في طغيانهم يعمهون؛ وأما من يُحسِن يُحسِن الله إليه.

ـ نعم.

سكت لأستوعب هذا الملخّص. جاء النّادل وبدأ بوضع الطعام. وضع طبق الكسكس باللحمة والإيدام في وسط الطاولة.

قلت لياسمين:

ـ كلامكِ طيّب؛ ولكن ماذا عن التعارض بين الدعاء والرضى؟ فالدّعاء هو طلب تغيير الواقع، بينما تقولين أننا مأمورون بقبول هذا الواقع؟

هنا تدخل عمر وقال:

ـ لو أنّك مرضت، هل ستمتنع عن أخذ الدواء؟

ـ لا.

ـ لو أمطرت السماء وبيدك مظلّة، هل ستفتحها لتقي نفسك من المطر؟

ـ بالتّأكيد.

ـ فلماذا تقوم بالأسباب في الحالات السابقة، ثم تستثني القيام بالدعاء، وهو سبب كبقية الأسباب؟

ـ صحيح. لكن لماذا الدعاء إن كان سيكون ما يكون.

ـ الدعاء سبب تقوم به. وأخبرنا الرسول ﷺ أنك إن دعوت الله، فإن الله سيستجيب إما بتحقيق مرادك، أو ردّ مكروهٍ عنك أو أن يرفع درجتك في الآخرة. فإن دعوت وتحقق المراد، فقد بذلتَ السبب. وإن دعوت ولم يتحقق مرادك فقد حجبت لحكمة.

ـ إذًا لمَ لا أدعو مرّة واحدة وإن حققه الله كان خيرًا وإن لم يحققه أرضى مباشرةً؟

ـ من قال أن عليك أن ترضى بكل المقتضيات. الله سبحانه قال أنه لا يرضى عن أمور مع أنها مخلوقة له، وهو سبحانه يكره أمورًا كثيرة وأمرنا أن نكرهها كالمعاصي والذنوب وغيرها.

ـ لكن ماذا عن الفقر والمرض والذل، هل يجب أن أرضى بها؟

ـ تبذل الأسباب.. فكما حاولت أن تأخذ الدواء عند مرضك، عليك أن تتجه للدعاء أيضًا، فالعبد من الممكن أن يكره المقضيات لكن يجب عليه أن يرضى بالحكمة التي خلقها الله لأجلها، فهي من جهة وقوعها مكروهة ومن جهة خلق الله

محبوبة مرضية؛ لأن الله خلقها لما له في ذلك من حكمة فنرضى بقضاء الله وقدره.

قلتُ:

ـ وضحت المسألة.

كان الطعام لذيذًا. قلتُ لهم:

ـ لم أذق الكسكس من قبل برغم سماعي عنه. إلا أنّه لذيذٌ جدًا.

قال عمر:

ـ نأكله كلّ يومين.

التفتُ إلى ياسمين وقلتُ:

ـ هل تحضيره سهل؟

ـ جدًا.

سكتنا قليلاً حتى يتسنّى لنا الأكل. قالت ياسمين بعد برهة:

ـ الإنسانُ يا مشعل، روحٌ نفخت من الله. روحٌ تحرّكها المشاعر والوجدان.

أحس الآن أنها تأخذ بي إلى محور آخر؛ هكذا يبدو. كانت ياسمين تتحدث بتأنّي، ربما تدعوني للتفكّر. أكملتْ:

ـ النفس تنتشي بمجرّد رؤيتها حبيب تشتاق له. تتمنى قربه لترتمي بين أحظانه، تلثمه وتشتم أنفاسه لتطفئ لهيب الشوق، وهكذا المحبون. حتى إذا وصلَتْ إلى الحبيب لم

تستطع الدنيا أن تحجب عنها هذا الشعور. تنفك عن كل الهموم.

وأنا أستمع إلى حديثها أحسستُ بالغَوْر العاطفيّ الذي طالما أرّقني. أكملتْ:

ـ أتحدّث يا مشعل عن الروح لا العقليات. أتحدّث عن تلك الروح التي تحرّك الشّوق فينا. هو شوقٌ مجهول عند الكثير، يُشعر بوحشة ووحدة. هذا شوق في حقيقته حنين إلى ذات، إنه شوق إلى خالق الروح. شوقٌ لا يشبعه ولا يملأ فراغه إلا القرب من الله.

إلتفت إلى عمر وفاجأني بقوله:

ـ ألم تحب يا مشعل؟

في هذه اللحظة، شعرت وكأن صفعة قوية أيقضتني. هذه الصفعة أيقضت حبًّا قديمًا في نفسي. أجبته وطيفٌ من خيال ابنة أم سعد يمر أمامي:

ـ بلى.

تابع عمر:

ـ وماذا حصل؟

خرجت زفرة من أعماق صدري وقلتُ في نفسي:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

أجبته:

ـ لم يجمع الله بيننا.

وهنا لمعت عين عمر وكأنه ينتظر هذه الإجابة. وقال:

ـ الحبيب يشعر بالضيق إن لم يكن بجانب حبيبته، والأم تشعر بالحزن إن لم ترَ ابنها البعيد عنها، أليس كذلك؟

حدّق في عَينَيّ للحظات ثم أكمل:

ـ نفس المحب لا تسكن إلا مع حبيبه. أفلسنا أولى بالشعور بذلك الضيق والحزن إن لم نرتمِ إلى محبوبنا؟ يا مشعل هناك حبٌّ قد زُرِع فينا منذ آدم الأوّل، حبٌّ قديمٌ جدًّا لم تلوّثه نزوات بني البشر؛ هو أعظم حب على الإطلاق؛ هو حبُّ الخالق... المعطي... الرحيم؛ هو حب الله. كل ما تهواه روحك حقيقةً موجود في ذات الله.

توقّف عمر وهنا أكملتْ ياسمين:

ـ حقيقة، لا تهمّني كثيرًا مسألة وجود الله؛ ما يهمّني معرفته، نعم معرفته على الوجه الحقيقي. الكثير يدّعي معرفته ولكن واقعهم يثبت العكس. قد تسألني لماذا؟ هل تأمّلت في حال الإرهابيين، الفاسدين، المرتشين، والمعتدين؟ أليسوا كلّهم مؤمنون أن الله موجود؟ لكن هل يعرفونه؟ ماذا أفادتهم معرفتهم بوجوده؟ هل تغيّرت أفعالهم؟

قاطعها عمر وقال:

ـ سؤالي: وأنت تنتظر الكسكس هل كنت مطمئن أنك ستستلذُّ به؟

ـ صراحةً لا.

ـ أمّا أنا فمطمئنٌ أنّي سأستلذُّ به. الفرق بيني وبينك، أن معرفتي بالطعام قادتني إلى الطمأنينة أما أنت فلم تكن مطمئن بسبب جهلك به. وكذلك لو عرفت الله حق معرفته لما وجدَتْ الهموم طريقًا إلى قلبك.

قالت ياسمين:

ـ معرفة الله تؤدي إلى تعظيمه، وكلما زادت معرفة الله زاد تعظيمه، وتعظيمه ينسيك كل ما دونه؛ فلا يتعلّق قلبك بمخلوق؛ هل تظن أنك في حال ضيق الحال وتذكرت أن الله هو الرزاق، امتلأ بها صدرك وأدركتها نفسك، هل سيبقى بعد ذلك هم؟ لو أن المتطرف الذي يظهر عليه سمات التدين الظاهري عرف أن الله سلامٌ مؤمن، هل سيوغل في تطرفه؟ معرفة الله سراج الإنسان في نفق هذا العالم المتلاطم، إنه مصدر السلام الداخلي.

جالت الأفكار في خاطري؛ لقيطٌ ينظر الناس إلي بازدراء. وحيدٌ لا سند لي. محرومٌ من الزواج لا أجد من أرتمي إليه. ترى هل ستنجلي وحشتي بمجرّد الارتماء إلى الله؟ هكذا بكل بساطة؟ قلتُ لياسمين:

ـ وهل حل المشكلة بهذه البساطة؟ مجرد الارتماء إلى الله سيحل مشكلاتي؟

جاؤوا بالشايَ وسكبت ياسمين الشاي لي ولعمر ولنفسها ثم قالت:

ـ نستهين جدًا يا مشعل بالارتماء هذا. هي ليست سهلة. جهلنا بالله يجعلنا نقول هي صلاةٌ نصلّيها وصيامٌ نصومه وفقهٌ نتفقّهه. فنقوم للصلاة، نحرّك أجسادنا، وقلوبنا ممتلئة بمشاغل الدّنيا والتعلّق بها. نصوم ولا تصوم أرواحنا فلا نصون ألسنتنا ولا جوارحنا. وتتحول بذلك الصلاة إلى تمارينٍ رياضية، والصيام إلى حميةٍ غذائية.

بينما الارتماء لا يكون إلا بتحقيق معناها، وهو تحقيق الدَّينونة الكاملة لله. الفرار التّام له. ولا يمكن أن ترتمي من دون معرفته. وعندها ـ وفقط عندها ـ تجد السعادة.

ما خلقنا الله لينسانا. تذكّر ذلك جيّدًا. كن مطمئنًا وارتمي إليه.

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم قلتُ:

ـ هذا كلامٌ لم أسمعه من قبل. ربّما أحتاج أن أتأمّل فيه أكثر. لكن سؤالي هو: كيف أعرف الله؟ أستمع إلى أشرطة الوعّاظ مثلا؟

قالت ياسمين بعدما قضمت قطعة من الحلوى وارتشفت قليلاً من الشاي:

ـ كثير من الوعّاظ يكتفون بـ"اتقوا الله" ثم غيّروا "كذا وكذا" في حياتكم دون الالتفات إلى صفات الله. وعندما يقرر شابٌ

أو فتاة تغيير حياتهم. بدلاً من يولوا كلّ وقتهم ليتعرّفوا على أسماء الله وصفاته؛ بدلاً من أن ترق قلوبهم بمعرفة هويّتهم ودينونتهم الكاملة لله؛ بدلاً من هذا كلّه يذهبون إلى جسد الدين لا روحه؛ فيحضرون مجالس فقهية تتحدث عن الحلال والحرام؛ فأول ما يقومون به هو إطالة لحاهم أو لبس الحجاب ويظنّون أن تلك أعظم تزكية لقلوبهم. بعد مدة -طالت أو قصرت ــ ستظل قلوبهم فارغة، وإن لم يتحرك القلب سيملّون. وإن ملّوا سيعودون من حيث أتوا، لأنهم لم يشبعوا هذا الشّوق. لعلّ بعضهم يحاول الاستماع إلى وعظٍ يركز على الترهيب والترغيب ليروي ظمأ روحه ولكن دون جدوى.

ــ لكن، ألا يقوم القرآن بذلك؟

ــ بماذا؟

ــ بالترغيب والترهيب؟

ــ نعم، ولكنّ المشكلة في الأولويات يا مشعل. القرآن بشكل أساس يركّز على معرفة الله. القرآن كلّه آيات مختومة بصفاته.

ــ لكن أليس هذا هو عين الترغيب؟ يرغّبنا الله بالقرب منه لنيل الجنّة.

ــ قد تتفاجأ مما أقول؛ لكن دع الجنة والنار جانبًا للحظات. لا تفهمني خطأ، الجنة والنار مآلنا. لكن هناك ما هو أهم.

ـ كيف؟

ـ الإنسان يحرّكه أمرٌ من ثلاث: جلب مصلحة أو دفع مفسدة.

ـ ...وهذا هو الترغيب والترهيب.

ـ نعم. والثالث ـ وهو أقواهم أثرًا وأكثرهم تغذيةً للروح ـ هو الدوافع والانقياد النابع عن حب وإعجاب. ألا ترى أن المحبّين يفعلون المستحيل من أجل حبيبهم وإن تسبب بضرر لأنفسهم. ومع ذلك، يشعرون بنشوة ولذّة.

كثير من خطب الجمعة تعج بـ(اعبدوا) أو (صلوا) أو (صوموا) أو (اتّقوا). لكن هل يعرّفون من يكون هذا المعبود الذي نصلي ونصوم له؟ هل ينزلون إلى أفهام النّاس ليبيّنوا هذه الصفات ومترتّباتها وأبعادها وآثارها؟ هل يغرسون حبّه في قلوبنا؟ هل يحرّكنا حبّ الله فعلاً؟

قال عمر:

ـ ما تقوله ياسمين -وكما قرأته في تويتر ـ هناك من يجلس في بيت الله؛ وقلّة من يجلسون في حضرة الله.

قالت ياسمين:

ـ ولذلك لا يعنيني كثيرًا إثبات وجود الله سبحانه كما ذكرت. معرفته هي لُب المسألة. والمعرفة ليست حفظ خالي لأسماء الله وصفاته أو ترديد فارغ لها. بل المعرفة تكون بدراسة مستمرة لصفاته وتأمّلٍ مطوّلٍ في أسمائه وتدبّر مركّز في آياته. ثم تكون بالعمل بمقتضى صفاته.

معرفته الحقة له تجعلك تتذوّق الأنس بطاعته والوحشة في معصيته؛ وأن تشتاق إلى انشراح الصدر المصاحب لمناجاته وتذوق الحسرة في غير حديثه، وأن تنعم بالإنابة إليه وتشعر بالعذاب عند تعلّق قلبك بسواه.

إن كنت تشعر بوجود جهة في الأرض بإمكانها أن تنفعك أو تضرّك، فأنت لم تعرف الله ولن تتعلّق به. لكن إن عرفته، ستحبه. ويستحيل بعدها أن تشعر بالوحشة وقلبك معلّقٌ به.

الفصل الحادي عشر

عرفت كل شيء؟

فلو شاهدت عيناك من حسننا

الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا

خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة

عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسمة

لمُت غريباً واشتياقاً لقربنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائح

تركت جميع الكائنات لأجلنا

فما حبنا سهلٌ وكل من ادعى

سهولته قلنا له قد جهلتنا

محمد راتب النابلسي

السبت 24 ربيع الآخر 1433هـ ــ 18 مارس 2012م

جرحتُ مشاعر ماريا في آخر لقاءٍ دار بيننا. هكذا أظن. أرسلتُ لها رسالة نصية طالبًا اللقاء بها. وكان موعدنا عند مطعم «كوكتيل كرش» في فندق «مينبورت». طاولات المطعم الخارجية كانت مطلّة على نهر «نيوي ماس».

وصلتُ المطعم قبلها. فكّرتُ مليًا بما سأقول لها. ولم تسعفني مخيّلتي في تركيب جملة واحدة مفيدة. لم يدم انتظاري طويلاً. جاءت ماريّا بعد ربع ساعة من وصولي. بدا قدومها لي إشراقًا.

أشرقت ماريا. نعم. هذا أنسب. وكأنّ نورها كشف أن كل شيءٍ سواها لا شيء.

ترى ما موقف ماريا مما دار بيننا آخر مرّة؟ بادرتها:

ــ كنت أخشى ألا تأتين.

كنت أرقب بتطلع ردّة فعلها التي ستكشف لي الكثير عن موقفها. سكتت للحظة ثم قالت:

ــ وأفوّت فرصة عشاءًا مجّانيًّا؟ هل تخالني مجنونة؟

ارتخت عضلاتي بعض الشّيء عند سماعي هذا الرّد. ثمّ أكملت وكأنّها أدركت نفسها:

ــ ولا تعتقد أن هذا عشاءًا غراميًا.

لم أقل شيئًا. لم أعرف ما أقول. سكتُّ وإياها لبرهة، جاء النّادل وسكب لي ولها ماءًا. ثم سأل إن كنّا نحتاج وقتًا لقراءة قائمة الطعام. أجبته:

ــ لسنا جاهزين. هل لك أن تعود بعد نصف ساعة؟

نظر إليّ بتعجّب، كما لاحظتُ نظرة ماريّا المتفاجئة أيضًا. قال النّادل بارتباك:

ــ حسنًا.

قلت:

ــ هل أنتِ غاضبة منّي؟

ــ بسبب ماذا؟

ـ بسبب ما حدث في آخر لقاء.

ـ وما الذي حدث؟

بدأت نبضات قلبي تتسارع قليلاً. وقلتُ:

ـ هل تسمحين أن أكون صريحًا؟

ـ ....

ـ أنتِ بالنّسبة لي لستِ مجرّد امرأة عابرة. أو صديقة مقرّبة...

نظرت إليّ ماريّا بتفحّص. أكملتُ:

ـ أتريدين الحقيقة؟ لقد غيّرتِ حياتي. لم أكن أعتقد أن باستطاعة أحدٍ فعل ذلك. لكنّكِ أتيتِ تحت مظلّتي وتغيّر كلّ شيء. وكلّ لحظة تمر بعدها تنقشع وحشتي أكثر.

أسندت ظهرها على الكرسي. كتّفت يديها وأخذت تتأمّلني. عندما لم تقل شيئًا أكملت:

ـ لم أقل لكِ هذا من قبل. لكنّي عرفتكِ قبل تلك الليلة الممطرة. كنت أرقبكِ من شبّاك مكتبي كلّ صباح. تأتين لتطلبين قهوتكِ وتقرأين كتابك.

أخذت نفسًا من فمها ببطء وتوسّعت عينيها بدرجة أكبر.

ـ تشرقين من أوّل الزّقاق وتغيبين في طرفه الآخر.

أشاحت ماريا عينيها إلى أقصى اليمين لبرهة ثمّ أعادت النّظر إليّ وقد بدأت عينيها بالاحمرار. قلتُ:

ـ لم أنم تلك الليلة. أن أجرحك وأنا مدينٌ لكِ؛ هذا ما طرد النّوم من عيني. هل أنتِ غاضبة مني؟

أجابتني وفي صوتها حشرجة:

ـ لا. لستُ غاضبة. أشعر بشيء من الحزن. ولكن لستُ غاضبة.

توقّفت لبرهة ثم أكملت:

ـ أعني. أحب أن أكون معك. أستمتع بلقائك. أنت مختلف عن كثيرٍ من الناس. السطحيون كثر. ومشعل مشعل. ثم بعدها تعود إلى السعودية وكأنّ شيئًا لم يكن. هذا ما يحزنني.

ـ ولكن أشياءً كبيرة كانت في الأشهر الماضية. وعليّ أن أعود. عليّ يا ماريّا أن أواجه نفسي، أن أجد معنىً لحياتي وما يحدث فيها قبل أن أفعل أي شيء.

ـ أعلم ذلك جيدًا، ولذلك لستُ غاضبة. أعلم ذلك.

سقطت دمعة واحدة سريعًا على خدّها، ولكن تمالكت نفسها. قالتْ:

ـ الفراق مكتوب على كل حال. إن لم يكن اليوم، ففي يومٍ آخر. سنفترق. لكن...

ـ ...

ـ أليس من الأجمل أن نمضِ وقتًا أطول... سويًا؟

ـ نعم.

ساد الصمت للحظات حتى جاء النّادل المرتبك مجدّدًا وقال:

ـ هل أنتما جاهزان؟

قالت ماريا وهي تمسح عينيها:

ـ أريدك أن تريني أغلى الوجبات لديكم. الغني الذي أمامي سيدفع.

الأحد 25 ربيع الآخر 1433هـ ــ 19 مارس 2012م

لم أشعر براحة وأنا أتفكّر تفكيرًا عقليًّا صرفا، لم أحسُّ بالطمأنينة وأنا أقرأ كتب الفلاسفة والمتكلّمين. شبع عقلي من ذلك حتّى التُّخمة، قرأت، وقرأت، وقرأت... حتّى كللتُ، وتوصّلت إلى قناعة عقلية تجعلني لا أجد فجوة عقلية بيني وبين الله؛ ولكن ما بالي ما أزال أشعر بهذه الجفوة؟

إلى متى والدّمع ينهر خدّ قلبي؟ إلى متى وأنا أشتعل في حُرقَتي؟ مهما حاولتُ طرد تلك الأفكار، تأتي لتنفضني، وأجدني مبعثرًا ما بين زوايا كياني، ثمّ أصحو من النّوم، وأقضي يومي في إعادة ترتيب أوراقي. كل الثغرات العقلية أغلقتها بإحكام، أُوصدت جميعَ أبوابِ الوساوس؛ ولكنّي ما زِلتُ جثّةً هامدة، لا روحَ فيها. كيف أُحيي روحي وقد أتخمَتْها الأوجاع حتّى هلكت؟

تذكّرتُ كلمات ياسمين: «لن تتحقق الطمأنينة المنشودة إلا بالتأمّل والانغماس في عبودية الإنسان لله، تلك العبودية التي لا تتغذى ولا تنال حظها إلا باللجوء إلى رضا الله والاستسلام لحكمه».

قررت أن أنغمس في الممارسة التعبدية لأعطيها فرصة أخيرة. سأعود إلى الصلاة في المسجد قدر المستطاع في هولندا. عاهدتُ نفسي أن أداوم على فعل السنن وعلى مداومة التجديف نحو ربي.

بعد مرور أسبوع على هذه (الصفحة) الجديدة، لم أشعر بأي شيء. كنتُ أحسُّ بملل. وكلّما نازعتني نفسي، أدرت عجلة ذاكرتي لأعيد تلك الحوارات والقناعات التي وصلتُ إليها.

كان أكبر تحدّي بالنسبة لي هو دفع ذلك الصوت الذي يبحث عن نتائج. ذلك الصوت المتردد المضطرب المترقّب الذي صَعُبَ عليه أن يثق بربه.

لا يهم. سأستمر.

الاثنين 16 جمادى الآخر 1433هـ ــ 7 مايو 2012م

بعد شهرين

استمريتُ وكنتُ منهكًا. أقوم في الصباح الباكر متجهًا إلى المسجد. كان الطريق يستغرق عشرين دقيقة من المشي.

وأنا أمشي خصوصًا في أوّل الأيام، كنت أؤمل نفسي بالسرير الدافئ الذي ينتظرني عندما أعود. بعد أن اعتدتُ على أن أصحو في ذلك الوقت، صار الفجر وقتًا محبّبًا. تكون نفسي بأهدأ حال. أمشي وأستشعر السكينة التي تحيط بي. أنظر إلى السماء تارةً وإلى الأشجار تارة، وأستغرق في طمأنينة غريبة.

صارت بداية رائعة ليومي. زدت على تأملي بتمتماتٍ بسيطة من تسبيح واستغفار. لا أعلم متى بالضبط؛ ولكن بدأ شيءٌ ما يتغيّر في داخلي.

الراحة التي بدأت تغمرني لم تكن وليدة حالة عقلية أو بدنية. تلك السكينة كانت نتاج حالة لياقة روحية أحافظ عليها.

مهما بلغت من الفهم، إن لم أمارس تلك التمارين الإيمانية الروحانية فإني أجد نفسي ــ شئت أم أبيت ــ في حالة من القلق والترقّب. إن لم أعطِ نفسي الجرعات الإيمانية اليومية، تفقد روحي اللياقة اللازمة لراحتها. الأهم من هذا كله أن تتعدّى تلك الأعمال

الحيز البدني. لا بد من أن أجتهد في إشراك روحي وقلبي وسائر جسدي في تلك الأعمال.

سمعت في صلاة الفجر اليوم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

لاح في بالي صورة المسجد السابقة عندي. بعد أن كان هو البيت الذي رُمي فيه اللقيط. تحوّل إلى بيت الرحيم الذي يبسط ذراعيه للقيط والعاصي والصالح والعابد والتاجر والحالم والمكروب والمتأمّل. بيتٌ لا يفرض نفسه على الناس، لكن النفس تفرضه عليك إن شعرت بلذّة الجلوس فيه.

لا أعلم متى بالضبط بدأ اليأس يخف؛ ولكن ما أنا متيقّن منه هو سبب التحوّل. كان السبب هو تجديفي المستمر تجاه الله سبحانه.

الإثنين 30 جمادى الآخر 1433هـ ــ 21 مايو 2012م

لا نبي في هولندا

قرب موعد عودتي. وكانت الأوصاد تنفرج شيئًا فشيئًا؛ ومع النور الخافت الذي بدأت أراه في آخر النّفق، إلّا أنّني أحببت أن أجلس مع تلك الشمعة التي أضاءت كل شيء.

جمعتني لقاءات أخرى بها لكن لم نلتقِ لوحدنا. لعلّنا كنا نريد شفاء جروحنا. لعلّني كنتُ أبحث عن صفاء الرؤية؟

قابلت ماريّا في المطعم الجزائري وقد تجاوزنا تمامًا الحوار الذي دار على النّهر. أشركتها بما يحدث. لا أعلم إن كنتُ أدعوها إلى تبنّي قناعاتي، أو إن كنتُ أنقل لها ما دار مع عمر وياسمين من باب الحديث العابر، أو إن كنتُ فقط أشاركها فرحي.

في خضم حديثنا سألتني ماريّا:

ــ ما الذي تغيّر؟

قلتُ:

ــ كنت دائمًا أشتكي وأقول: (إن هناك قوة خفية تسحبني إلى الوراء... تسعى إلى تعاستي جاهدةً) واكتشفت أن نفسي، وشكواي الدّائمة، ونظرتي المظلمة؛ هي تلك القوة الخفية التي كانت تعرقل سير حياتي، وهي التي كانت تغطي قلبي،

وهي التي كانت تئدُ كل فرصة تهيّأت أمامي لـأُولد من جديد.

علّقت ماريّا وكأنها تحرّك عجلة الحوار إلى النّقطة التّالية:

ـ الذين يعيشون دون أذىً روحي تراهم ضائعين لا يقدّرون ما بين أيديهم من نِعَم وتجدهم يعيشون حياةً فيها من السطحية الشيء الكثير.

ـ كيف؟

ـ ما دام الإنسان بعيدًا عن التجربة، فهو بعيد عن نتائجها، ومن ثمّ يصعب عليه إدراك هذه الدروس حسيًا ومعنويًا؛ الأمر الذي يجعل اللهو عنها أمرًا طبيعيًا! طبيعيًا جدًا، خاصة عند أولئك الذين ليس عندهم مَلكة التعلم من تجارب غيرهم، وليس لديهم استيعاب، ولا استعداد أن يضعوا أنفسهم في تلك المواقف... وأعتقد أنّني منهم.

سكتت قليلاً ثم قالت وكأنّ الفكرة أتتها للتو:

ـ أتعلم ماذا؟

ـ ماذا؟

ـ الإنسان يتغير إما مع مرور الوقت، وإما مع اختلاف البيئة التي تحيطه، أو حتى ـ أحيانًا ـ مع تبدل حالته النفسية، تتغير معه مفاهيُمه، أولوياته، مبادئه، ورغباته. من هنا أتساءل: هل كل ما نطلبه ونسعى إلى تحقيقه، هو فعلاً ما نحتاجه؟ هل هو فعلاً خيرٌ لنا؟

علّقتُ على حديثها قائلاً:

ـ خطبت امرأة قبل سنين، وأحببتها حبًا شديدًا، دعوت الله أن يجمعني بها، ولم يستجب إلى دعائي، ولم أحصل على ما تمنيته، وحزنت حزنًا شديدًا على فراقها. بعد مرور السنين تغيرّتُ، اختلف فهمي للحياة، وتَغَيَّرَتْ نظرتي للعديد من الأمور، وتبدلّت الكثير من مبادئي القديمة بمبادئ جديدة.

عندما أرجع إلى صفحات الماضي، أجد أن كل ما كنت أراه جميلًا فيها صار قبيحًا عندي الآن، بل أصبَحَتْ تلك المرأة تشبه أنموذجًا لا أطيقه من النساء، وأنا أحمد الله وأشكره ليلًا ونهارًا؛ لأنه حال بيني وبين كارثة كنت سأتزوجها.

فقبل سنين كنت أقول: (ربِّ اكتبها لي...) وبعد سنين أصبحت أقول: (الحمد لله الذي لم يكتبها لي). مع أن المرء يتعايش مع رحمة الخالق، ويرى هذه الشواهد باستمرار، ويشاهد فضل وحكمة ربه يومًا بعد يوم؛ إلا أنه ينساها، ويعود فيسخط ويشتكي عندما لا يستجيب الله إلى بعض دعواتِه.

أخبريني ألا تفكّرين في معنى الحياة، سبب وجودنا، ماذا بعد الموت؟

ـ نعم. ماذا عنك؟

ـ أنا لا أحس أني مرتاب من الموت لهذه الدرجة، أتأثر عند مشاهدته؛ ولكني لا أرتاب منه، لا أدري لماذا؟ وأرى في حفرة

القبر كثيرًا من الحنين، ومن الانتماء ومن شيء يشبه الإحساس بالوطن، لا أدري لماذا؟ كأنه رحم (أمّ) يناديك بشيء من الاشتياق.

ـ أحيانًا أصل إلى قناعة أن أحسن ما في الحياة، أن الإنسان يموت! تصور أنك ستعيش أبدًا، فكرة مرعبة أن أعيش خمسين سنة مستقبلاً، كيف إذن بالعيش أبدًا؟!

ـ يرعبني هذا بأكثر مما تتصورين، وهذا الرعب ينتقل إلى ما بعد الحياة الدنيا، ترى، كيف سأتكيّف مع فكرة أنني سأعيش أبدًا؟ يأتيني شعور بأن الحياة سترهقني. أشعر أن الحياة تأخذ قيمتها من الموت الذي يليها، وهذه الفكرة تجعل من الحياة مجال تجارب، واستثمار، ونجاح، وفشل و(حياة)؛ ولكن عندما أرمي نفسي من فوق جبل وأعرف أنني لن أموت، سينكسر حاجز إحساسي بالسقوط نفسه، وسيكون السقوط شيئًا تافهًا ليس له قيمة.

الموت، الانتحار، النهايات بوجهٍ عام، كلها من الموضوعات التي تستثيرني جدًا في التفكير والكلام. ألا تلاحظين في فكرة الانتحار ـ سواء هروبًا من الدنيا أم إقبالًا على الآخرة ـ ألا تلاحظين في الفكرة مفارقة عجيبة؟

ـ بلى؛ لأن الانتحار أجبنُ ممارسة يمكن أن يتخذها الإنسان في حياته، مع أنه ـ نظريًا ـ أشجع ممارسة يمكن أن يتخذها الإنسان.

ـ قرأتُ آية في القرآن قبل بضعة أيّام. استوقفتني. أحسست أنها تخاطبني: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: 143].

كنتُ أود أن أقول لها «شاركيني مبادئي كي نتشارك الحياة». كنتُ أودّ ذلك. لكني أخبرتها بكل تفاصيل حواراتي وبحثي ورحلتي. ماذا عسايَ أن أقول أكثر من هذا؟ أخبرتها بالحجج التي ذكرها عمر وياسمين. هي ذكية ولمّاحة. إن شاءت أن تبدأ رحلتها بإمكانها أن تسألني. لكن، من قال: إنها لم تبحث؟ ربّما هي في منتصف الطريق أيضًا. ربّما انتهت من رحلتها وتوصّلت إلى قناعاتها اليوم. ربّما هناك شيءٌ آخر.

أتاني صوتها من بعيدٍ يقول:

ـ أخبرني، ماذا ستفعل بعد العودة إلى وطنك السعودية؟

ـ أنا في وطني الآن.

ـ لم أفهم.

ـ بعدما صار الذي صار.. أصبح وطني وانتمائي هنا في صدري.

الفصل الثاني عشر

أغمض عيني وأقفز

لم أدرِ ما غُربَةُ الأوطانِ، وهو معي
وخاطِري، أينَ كنّا، غَيرُ مُنْزَعِجِ

ابن الفارض

الإثنين 7 رجب 1433هـ ــ 14 يونيو 2012م

انتقلتُ إلى مدينة الرياض بعد عودتي من هولندا وبعد سنواتٍ من العيش في جدة. للتو أنهيت اجتماعي مع مديري الجديد في الشركة. بعد لقاءٍ طويل حول الخطة السنوية والأهداف الاستراتيجية للعام المقبل كنت أشهر بالإنهاك. يبدو أنها ستكون سنة عصيبة.

توجهت إلى زميلي مازن الذي يجلس في المكتب المجاور لي. تعرّفتُ عليه بعد أسبوع من انضمامي إلى المكتب الجديد.

قلتُ له:

ــ مازن أشعر بالإجهاد بعد هذا الاجتماع الذي كاد ألا ينتهي. ما رأيك أن تشاركني كوبًا من القهوة في مقهى الفندق المقابل.

دخلنا بهو الفندق وارتميت على أقرب أريكة. خلعت شماغي وعقالي ووضعته جانبًا ثم تنهدت.

قال مازن:

ــ ألهذه الدرجة تشعر بالقلق؟

ــ لا أشعر بالقلق. أنا فقط منهك.

رنّ هاتف مازن فاستأذن. جلستُ لوحدي وشعرت بشيءٍ من الراحة النفسية برغم الإجهاد الذي أشعر به.

كلّما أودع الإنسان بعض أوجاعه عند الله خفّ بعضٌ منه، وكلّما أودع الإنسان جزءًا أكبر من بعضه خفّ جزءٌ أكبر من همّه أيضًا، ولا تزول الهموم كلّها إلّا بأن يودع الإنسان كلّه عند الله. على الأقل، كانت هذه تجربتي.

بالنظر إلى الصورة الكبيرة، لا أظن أنّني إن حققتُ ما أرغب به..؛ قد فزت، ولا أظن أنّي إن لم أحقق ما أرغب به خسرت، أبدًا، الفوز والخسارة لا علاقة لهما بتحقيق الرغبات الفردية، هي في أمرٍ آخر كنت أغفل عنه تمامًا.

ما غفلتُ عنه، وما تعلّمته، هو: أن لُبّ الإيمان بالقدر خيره وشره يكمن في الرضا عن المقدّر، التخلي عن شروط الفهم والسعي في بذل الأسباب لتحقيق المستطاع. جميعنا يجيد السعي وبذل الأسباب؛ ولكننا نتخلّى عن المصدر الوحيد للطمأنينة والسعادة، مصدر السعادة ليس هو الحصول على ما نتمنّاه، بل مصدر السعادة يكمن في الرضا ومواصلة السعي. الإيمان حالة لياقية تتمرّن عليها بالسعي، بالصلاة والأذكار وفعل الخيرات. ما إن تتوقف حتى تخف لياقتك وتعود حيث ابتدأت. الإيمان ليس حالة عقلية أو بدنية. هي حالة لياقية روحية.

يا رب، منذ أن عرفتك لم أعد أبحث عن الطريق الصحيح، فكل الطرق بوجودك باتت صحيحة.

شعرت بشيءٍ من الطمأنينة. جاء مازن عابس الوجه وقال:

ـ النساء حطب جهنم يا رجل!

أضحكني. قلتُ:

ـ ما المشكلة؟

ـ تقول زوجتي: «أنت لا تهتم بي. أنت تقضي كل وقتك في العمل».

ـ ثم ماذا؟

ـ هل تظن أنّي أرقص في حفلةٍ لنانسي عجرم؟! ها أنت ترى الساعات الطويلة التي نقضيها في هذا المكتب. وبدلاً من نانسي أرى وجهك!

ـ يبدو أنّك لم تستطع الرّد على زوجتك، فجئت لتصبّ غضبك علي. هيّا قم لنأخذ قهوتنا ونعود إلى المكتب.

الثلاثاء 26 رمضان 1433هـ ـــ 14 أغسطس 2012م

ليلة السابع والعشرين

بعد أن فرغت من التراويح، أحسست برغبةٍ في الجلوس في المسجد قليلاً. أسندت ظهري إلى سارية المسجد وبدأ فمي يتمتم بكلمات، حينما تأملتها وجدت أنها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ما الذي جعلني أتمتم تلقائيا هكذا؟ تذكرت صديقي مازن حينما أعطاني مطويّة لا يريدها كان فيها مجموعة من الأذكار ووقعت عيني على هذا الورد. أذكر أنني حينما قرأت أن ترديد هذا الذكر مائة مرة يحط من خطاياي، صرت أردده حتى أصبح عادة. ربما كنت أردده لأني كما يقال غير متدين، وأريد ألا ينتهي يومي إلا وصحيفتي نظيفة.

وأنا أتمتم تذكرت ماريا، لا أعلم لماذا أتت ذكراها الآن، ربما لازلت أحبها، وكيف لحبيب أن ينسى من أحب.

أعيروا عيوني نظرةً من جمالكم

وما كلُّ من يبغي الوِصال يُعيرُ

أقامَ على قلبي وسمعي وناظري

رقيبٌ فما يخفى عليه ضمير

مـــرادي هـــواكـــم والـــهـــوان كـــرامـــةٌ

لـــحُـــلـــو هـــواكـــم والـــســـعـــيـــر يـــســـيـــرُ

فـجـودوا بـوصـلٍ فـالـزمـان مـفـرِّقٌ

وأكـثـر عـمـر الـعـاشـقـيـن قـصـيـر

لم تكن المرة الأولى التي تمر ذكرها، أحس أن همومي كلها قد ذهبت، أحس أن السعادة تكاد تنفجر من صدري، تريد أن تحلق.

قطع شعوري الجميل شاب قدم إلي القهوة وقال: هل ترغب في شرب القهوة؟

أخذتها منه شاكرا، وذهب ذلك الإحساس الرائع. يأتي طيف ماريا من غير موعد برغم أنّي تعبت من الحب. تعبت من أن يتعلّق قلبي بالآخرين. لم أعد أتحمل خوض غمار تجربة حب جديدة، أشعر بعدها أنّي أقتل وأنا حي. أصرخ في داخلي: يكفى. أريد أن أتعلق بمن لو تعلقت به لم يتركني.

أخرجتُ هاتفي المتنقّل ووجددت رسالة نصيّة من مازن تقول: «يا الله اقبلنا جميعًا في هذه الليلة المباركة وفرّج عنّا». وضعت الهاتف على فخذي وأطرقتُ رأسي متأمّلاً؛ ما الفائدة من هذه الأدعية والأذكار أساسًا؟ أعتقد أن هذه الأدعية أو الأذكار لا تهدف إلى زيادة حسنات المسلم، وإن كانت هذه إحدى نتائجها.

أعدتُ هاتفي إلى جيبي وتذكّرت حديثًا رأيته في التلفاز لشيخٍ يقال له محمد راتب النابلسي: «معرفة الله تكون بمعرفة صفاته

وذكره وتدبّر آياته وخلقه. تستوفي أسماءه. تجدد هذه المعرفة بالانكباب إليه ذاكرًا وبالارتماء إليه متدبّرًا.

إن سبحته وحمدته وكبرته فقد عرفته. وإن عرفته عرفت كل شيء. وإن عرفته صغر في عينك كل شيء. الله أكبر. أكبر من كل شيء».

اذاً تلك الأذكار وسيلة؛ غايتها أن يتعلّق قلبي بالله، وأن ينسى قلبي كلّ شيء سواه. أن يُنسب كل خيرٍ له وأشكره على ذلك. وثم أشكره على أن هيّأ لي شرف شكره.

إلتفتُ وإذا برجلٍ طاعنٍ في السّن يبدو أنه من الشام يجلس بقربي. كان وجهه أبيضًا منيرًا وذا ولحيةٍ بيضاء. سمعته يتمتم بمجموعة من الأذكار. كان يتغنّى ويغمض عينيه بين الحين والآخر. توقف قليلاً وكأنّه شعر أنّي أراقبه. التفتَ إلي وقال بلكنة شامية:

ـ الذكر يا بني يصلك بالله؛ والاتّصال بالله يجعلك متعلق به؛ وإن تعلقت به أحببته؛ وإن أحببته أعانك وأصبح معك. ستجده حينما تحتاج إليه؛ مثل الطفل لا يفتأ من ذكر "ماما. ماما" فتفرح الأم وتأنس بابنها فتعطف عليه وتحضنه، فتسكن نفس الطفل وتطمئن. فما بالك بالله؟ ذكره ترياق كل الهموم. يا إبني لا تنقطع عنه لأنك إن انقطعت لم يعد يذكرك وأنت محتاجٌ إليه (فاذكروني أذكركم).

ابتسمتُ إلى الشيخ وشكرته على لطفِ حديثه. بادلني الابتسامة وعاد إلى تمتمته.

* * *

كان القائمون على المسجد يطفئون أغلب الأنوار ويبقون القليل منها عند صلاة القيام. أضف إلى ذلك أن صوت الإمام كان رخيمًا ممّا أضفى روحانية لتلك الليلة.

أثناء السجود، كنت أُكثر من التسبيح ولم أجد في نفسي لذّة. أؤدي حركات بلساني لها أثرٌ بسيطٌ على روحي. وجدت نفسي ــ من غير وعيٍ مني ــ أفكّر في حياتي الاجتماعية أو الحب أو ما سأفعله في يومي؛ ثمّ أعي أني صرت أحدّث نفسي أثناء السجود فأعاود التّركيز فأسبح مجددًا. أخذت أراوح بين الدنيا وبين التسبيح في أوّل خمس ركعات دون أي أثرٍ يُذكر.

في الركعة السادسة وأثناء ثاني سجدة، تلبّستني نزعة لا أعلم كيف جاءتني. وكأن الأذكار التي لم تبرح لساني أخذت تنخر في تعلّقي بالدنيا شيئًا فشيئًا. وتراكم هذا الأثر طوال شهر رمضان حتى قصمت هذا التعلّق. تملّكني سكونٌ غريب. كلّما تلمّست الدنيا ومشاغلها طريقها إلى وعيي صرتُ أُميطها كما يماط الوسخ عن الطريق.

صرت أسبّح ببطء وكأنها كلمات تخرج من فمي لأوّل مرّة. خيل إلي أنّي أُخرِج الدّنيا كلّها من داخلي مع كلّ زفير. ومع كلّ شهيق، تخيّلت أن روحي تُقتلع من جسدي المادّيّ وتتصعّد إلى السّماء إلى

مكانٍ منير. مكان يحيط به هالة من الشعور الذي يستحيل وصفه. مزيجٌ من الراحة والرضى والذهول والانشراح. شعرتُ أن روحي ترتقي وترتفع وتتطهّر مع كل زفرة. غاب كل شيء. حتّى نفسي غابت. بدأت أسبح وأهلل وهذا النّور يحيط بي.

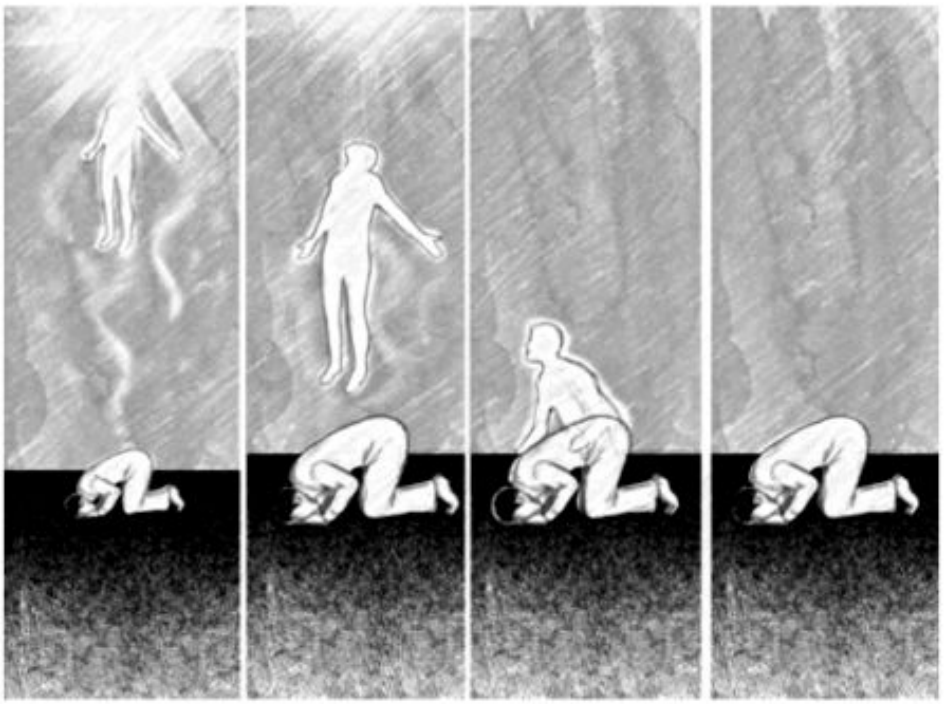

استمرّ ذلك الشعور حتى انتهت الركعة. بعد أن كبّر الإمام وبمجرّد أن بدأ بقراءة سورة الحمد ــ كلام الله ــ انسالت الدموع منّي. داهمني بكاء مفاجئ واختلط بنشيجٍ حاولتُ أن أكتمه إلا أن ذلك الشعور الذي لا يمكن وصفه تملّكني تمامًا. وكأن كل وظائفي الجسدية توقفت، ولم يبق إلا قلبي يسمع ويرتجُّ مع كل حرف.

شعرت بانفكاك تام عن كل ما حولي. لم يحط بي إلا ذاك النّور الذي كان يلتهمني. تلك الهالة التي لا توصف.

خفّ النشيج واستمر الشعور عند تسليم الإمام. جلستُ أذكر الله بعد الصلاة. ولا زلت أشعر بشرودٍ تامّ من الدنيا. ما وددت أن أتحرّك حتى لا يذهب هذا الشعور.

بقيت في المسجد بين صلاتيّ القيام والفجر، ولم آكل سوى بضعة تمرات ناولني إياها شابٌّ كان يجلس بجانبي.

لم أكن في بيت الله اليوم. كنتُ في حضرته. شعوري بأنّه وفّقني لأن أقوم الليل، ولأن أسجد له، ولأن يُسرى بروحي في هذه الليلة كان كنسمات باردة تبرّد علي حرّ الوحشة. كغيمٍ ممطرٍ يروي عطش الفقد.

عندما عدتُ إلى سريري خلدتُ إلى النّوم سريعًا على أثر التعب الذي شعرتُ به. هل كانت تلك المشاعر التي اعترتني أثقل مما تحتمل روحي؟ هل كان بسبب البكاء الشديد؟

تذكرتُ قصّة موسى عندما طلب أن يرى الله، فلما تجلّى له الله خر موسى صعقاً لوقوفه في حضرة الله. (فلما أفاق قال سبحانك، تبت إليك، وأنا أول المؤمنين). هل كنت في حضرته؟

سبحانك ربي، تبتُ إليك، واجعلني من المؤمنين.

الفصل الثالث عشر

يبقى صوت واحد

«ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ وإذا كان معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ فإذا وجدته وجدت كل شيء وإذا فاتك فات كل شيء وهو أحب إليك من كل شيء»

محمد راتب النابلسي

مرّت بضعة أشهر منذ عودتي إلى السعودية. برغم عودتي إلى «غربتي»، إلا أنّي أحسست بانتماء لـ«وطني» الجديد الذي يقبع فيني. يزداد عشقي لهذا الموطن عقب صلاة الفجر وأنا أمشي عائدًا إلى منزلي. لم أعد يتيمًا. يقل شأن الأصوات والنظرات حولي وأنا أستشعر أنّي في علاقة مباشرة مع خالق كل شيء.

جاءني اتصال من الزمن الجميل. وضعت سماعة الهاتف عند أذني وقلت:

ـ أهلاً عمر!

ـ مرحبًا مشعل.

ـ كيف حالك يا رجل؟!

ـ بخير. ماذا عنك؟

كنت أود أن أسأل عن ماريا أولاً إلا أني ذوقيًا أردت التدرج: الحمدلله. كيف حال ياسمين؟

ـ حامل.

ـ هذا رائع يا عمر!

ـ الحمد لله مضى الكثير وبقي القليل. ستلد بعد شهرين بإذن الله.

ـ ستكون بخير، خصوصًا وعندها ماريا لتهتم بها

ـ لهذا اتّصلتُ بك

انقبض قلبي ولم أقل شيئًا

ـ ماريا ليست على ما يرام.

ـ ....

ـ مرحلة متأخّرة من سرطان في المعدة.

لم أعرف ما أقوله. ضاعت الكلمات والتعابير. كل الأسئلة لا قيمة لها. بدأ يشرح ما حصل وكيف تتطور الأمر. لكنّي لم أستطع أن أستمع إلى ما يقول. كل ما يدور في تفكيري هو أني سأسافر إلى هولندا لألقاها.

تأمّلات

في الطائرة... أخذت أسترجع بعض المواقف القديمة مع ماريّا...؛ أتذكّر حينما آلمتها معدتها، وعدنا إلى شقّتها.

أتذكّر كيف كانت تتحدث عن الموت بشجاعة. وأتذكّر كيف قالت: إنَّها لا تستطيع أن تتغيّر من أجلي.

كنتُ أتساءل عمّا إذا كانت مرّت برحلة لتتأمّل وتفهم الحياة. وما علمت أنّها كانت على رحلة لتفارقها.

حاولتُ أن أنام ولم أستطع.

سكون

استقبلني عمر في المطار وقابلت ياسمين في السيارة. ونحن في الطريق لم أستطع أن أجاريهم في الحديث. كيف وماريا هي الشمس التي أضاءت حياتي؟ أخبروني أنها لا تعلم أنّي جئت لرؤيتها. طلبت منهم أن يأخذوني مباشرةً إلى المستشفى.

وأنا أمشي بين أروقة المستشفى، أخذ قلبي يضطرب اضطرابًا شديدًا. لم أكن أستطيع أن أحضّر نفسي لما سأراه. وصلنا إلى باب غرفتها. قدّماني عمر وياسمين وقالا أنّهما سيتركاني لوحدي معها.

كانت هي ولم تكن هي. العينان الواسعتان الآسرتان هي نفسها إلا أن النيران المشتعلة فيها أُطفئت. الكحل الثائر لم يكن يكسو عينيها. الوجه النقي نفسه، إلا أن شحوبًا تملّكه. هي ذات النفس المقاتلة إلا أن المرض أنهكها. كانت تنظر إلى الخارج قبل أن تلتفت إلي.

صارعت نفسها لترسم على محيّاها علامات الاندهاش. قالت وبحّة تثقل صوتها:

ـ باتمان!

لم أتمالك نفسي وأخذت الدموع تنهمر. لم أعرف كيف أتصرّف؟ هل أضمّها أم أقاوم دموعي؟ كلّما قاومت وجدت الدمع ينهال أكثر فأكثر. لم أصدر صوتًا. وضعت إبهامي وسبّابتي اليمنى على عينَيّ لأقاوم الدمع. التفتُّ إلى الخلف ثم عاودت الالتفات إليها. انتشلني صوتها الحازم رغم ضعفه ورقّته:

ـ مشعل. لم أمت بعد.

مدت يدها لتعطيني بعض المحارم الورقية. اقتربتُ منها فقالت:

ـ ماهذه المفاجأة الحلوة!

ـ أأنتِ بخير؟

ـ نعم.

ـ لم يخبروني بمرضك.

ـ أنا طلبت ذلك.

ـ لمَ؟

ـ لا أدري.. كل ذكرياتنا جميلة. لم أرد أن أخدشها بهذه.

لم أقل شيئًا. مرّت بعض اللحظات من غير حديث ثم قالت:

ـ لا يوجد ما أندم عليه. ولن أسمح للأيام الصعبة أن تنسيني ذلك..لا أدري.. أعتقد أنّنا كلّما جعلنا مصدر سعادتنا في داخلنا كلّما ضعفت قدرة ما هو خارجنا لإيذائنا؟ ألا تعتقد ذلك؟

أجبتها بابتسامة. اكتفينا بالنّظرات. تذكّرت في تلك اللحظة كلمات سمعتها من ياسمين:

«فيما يخص القدر، والسعادة. لا وجود لاتّجاهات صحيحة. بل لا تهمّ أساسًا. لا يهم ما يحدث للجسد. أين يذهب، ماذا يرى ويسمع. المهم هو ذاك الشيء الذي يحرّك الجسد. الذي يقبع في أعماق أعماقنا.

نخطئ إن ظننا أن الروح تبحث عن اتّجاه معيّن ليشعر بالراحة أو الطمأنينة أو الرضى. هو يبحث عن الانفكاك الكلّي عمّا يدور حولك، فلا يهم إلى أين نجدف. أبدًا. لا يهم. المهم هو التجديف نفسه. كلّما زاد واستمر كلّما انفكت الروح، شيئًا فشيئًا عن هذا الجسد. عن هذا الوحل الذي يعيش فيه. وإن انفك. بلغت العُلا.

أليست هذه الحياة كلّها أصلاً؟ عملية انفكاك كبرى؟ يذهب الأحباب، تذهب الصحّة، تذهب الصحبة، يذهب المال، يتزوج الأبناء ويذهبون. فتبقى الرّوح. وعليها أن تذهب هي أيضًا»

مرّت لحظات أخرى من غير حديث.

اقتربتُ من ماريا حتّى جلست عن يمينها وتشاركنا الصمت. كنت أنظر إلى الشبّاك. أخشى أن تلتقي أعيننا فيعاود الدمع زيارة خدّي. لم تتحرّك تلك الأصوات التي كانت تراودني دائمًا: «لماذا»، «لماذا أنا»، «ماذا لو». غاب ذاك الذي يستنكر ويستفسر عن سبب كل شيء.

توقفت الأصوات، توقفت الأفكار. توقفت...وعمّ السكون...

المراجع

المرجع	المؤلف
قصة الإيمان: بين الفلسفة والعلم والقرآن	نديم الجسر
حي بن يقظان	ابن طفيل
مقام العقل في الإسلام	د. محمد عمارة
رسالة المسترشدين	الحارث المحاسبي
شرح الحكم العطائية	أحمد بن عطاء الله
نظرية المعرفة	فؤاد زكريا
تهذيب المنطق والتفكير العلمي	محمد البهنسي
المنقذ من الضلال	أبو حامد الغزالي
البحث عن الحقيقة الكبرى	عصام قصاب
القرآن والتوراة والإنجيل	موريس بوكاي
كبرى اليقينيات الكونية	د. محمد سعيد البوطي
الإنسان مخير أم مسير	د. محمد سعيد البوطي
الإنسان وعدالة الله في الأرض	د. محمد سعيد البوطي
الإسلام والغرب	د. محمد سعيد البوطي
هذا والدي	د. محمد سعيد البوطي
الحب في القرآن	د. محمد سعيد البوطي

التعرف على الذات	د. محمد سعيد البوطي
تثبيت دلائل النبوة	القاضي عبدالجبار
أعلام النبوة	أبو حاتم الرازي
رحلتي من الشك إلى الإيمان	مصطفى محمود
الرسالة الأكملية	ابن تيمية
الرسالة التدمرية	ابن تيمية
سلسلة مطرقة البرهان وزجاج الإلحاد	د. عدنان إبراهيم
القرآن المعجز	جاري ميلر
المساكين	مصطفى صادق الرافعي
كيف بدأ الخلق	د. عمرو شريف
نظرية المعرفة	زكي نجيب محمود
القضاء والقدر في ضوء الكتاب	عبدالرحمن المحمود
شبهات حول الإسلام	محمد قطب
المرسل الرسول الرسالة	محمد باقر الصدر
Philosophy for Dummeis	Tom Morris
Intelligent Design	W. Dembski
A Confession	Leo Tolstoy
There is a God	Antony Flew
The Problem of Pain	C.S. Lewis
Specification	W. Dembski
A Brief History of Time	S. Hawking
The Language of God	F. Collins
Testimony	C.A. Coady